



General Organization of the Alexan-
dria Library (GOLAL)
Library of the Ministry of Education
Alexandria, Egypt

اهداءات ٢٠٠٩

مكتبة

ا.د محمد الحميد بدوي

القاضي بمحكمة العدل الدولية

سكينة بنت الحسين

تأليف
الدكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)

أستاذة اللغة العربية وآدابها
بجامعة عين شمس

دار الهلال

مقدمة

بقلم: الأستاذ أمين الخولي

ينظر القارىء فيما كتب مؤرخو التاريخ الاسلامى ، كالتبرى ،
والمسعودى ، وابن الأثير ، وابن خلدون ، وغيرهم ، فتلفته ظاهرتان
تسترعيان الانتباه ، وهما :

أولا : ان ما كتبه أولئك المؤرخون كانت توجهه الاغبيارات
السياسية ، فهم انما يؤرخون فى الحياة الاسلامية للخلفاء ، والولاة ،
والحكام ، والقادة ، والفتوح ، والمعارك ، وما الى ذلك من أخبار
الساسة المدبرين للشئون العامة ، متجاهلين فى نفس الوقت حياة الشعوب
الاجتماعية

فكان التاريخ عندهم هو تاريخ حكام الشعوب ، لا تاريخ الشعوب
نفسها ، ومن ثم لم نظفر الا بالنزر اليسير من تاريخ النشاط الحيوى
لهذه المجتمعات فى غير المجال السياسى والحكومى ، بل لم يقع ذلك الا
عرضا فى أخبار الحكام والمسيطرين ، أو حواشيهم ومن يرد ذكرهم من
الطبقة التى حولهم

فاذا أردنا أن نلتمس شيئا من أخبار النشاط الحيوى ، فيما عدا
المجال السياسى الذى أشرنا اليه ، فليس أمامنا الا أن نلتسبها منثورة
مبددة هنا وهناك ، فى مثل كتب الطبقات التى وضعها أولئك الأقدمون
للغنائ المختلفة ، من محدثين ، ومفسرين ، وفقهاء ، ونحاة ، وأطباء ...
وغيرهم ، مما نستطيع بعد الجهد الجييد أن نستخرج منها ما يؤرخ
النشاط الاسلامى فى صورته الاجتماعية ، ومجالاته المختلفة : ومع ذلك

لن نظفر من ذلك بالبين الوافى ... لأسباب أخرى لا محل هنا للتعرض لها ..

ثانيا : يلاحظ على هذه الكتب التاريخية القديمة انها - بصفة عامة - تحوى من تاريخ الحياة الاسلامية أخبارا مجردة ، وحوادث مسرودة ، كان أولئك المؤرخون - أول العهد - يصدرونها بسلسلة من أسماء الرواة ، يعدونها أسانيد لما يليها من متون تلك الأخبار والأحداث ..

على ان هؤلاء المؤرخين لم يلبثوا أن جردوا مروياتهم من الأسانيد أو سردها بدونها ، مرسلة ..

وهنا يجدر بنا أن نسأل : هل هذا السرد القديم هو التاريخ ؟ .. وهل يعطى لقب المؤرخ - اليوم - من يجمع مثل هذه الأخبار فيقصها أو يسردها بسند أو بغير سند ؟ ..

لعل هذين السؤالين يبدوان غريبين على من لم يلفته ما صار اليه الأمر اليوم من مستوى عال للثقافة الانسانية . وان هذا المستوى قد جاوز الدور الذى كان فيه التاريخ قصا ، وسردا ..

ان التاريخ - اليوم - هو وصف لسير الحياة بالناس ، يبين السنن الاجتماعية في حياتهم ، والنواميس التى تحكم وجود مجتمعاتهم وأفرادهم في هذه الجماعات ، وأصناف نشاطهم فيها

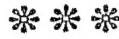
والتاريخ - اليوم - درس دقيق ينفذ الى ما وراء الأحداث المسرودة ، وما خلف الأخبار المروية ، ليستشف العوامل التى تسيرها والمؤثرات التى تتحكم فيها

والتاريخ لذلك لا يتلقى الأخبار فى استسلام ، ولا يتقبل المرويات فى تساهل ، بل يفحص ذلك كله ، ويختبره ، وينقده

ثم هو بعد ذلك يربط بين السابق منها واللاحق ، يُرد المسبب الى سببه ، ويتبين المقدمة التى أدت الى النتيجة ، ويهتدى فى ذلك بما عرف البحث الأصيل من حال الاجتماع البشرى ، والسنن المقررة لحياة المجتمعات الانسانية

واذا كان هذا هو شأن التاريخ اليوم ، فان القارئ يدرك اذن في وضوح ، ان الأخبار التي حفظتها تلك المؤلفات أو الموسوعات الأولى ، ليست هي التاريخ ، وانما هي مادة التاريخ وخامات دراساته التي أشرنا الى وصفها اجمالاً

وتاريخ الحياة الاسلامية يحتاج منا الى هذا العمل الجليل والنشاط النفسي ، ولعل أجيالاً منا تتمه على وجهه الصحيح



وهذا الكتاب حلقة من سلسلة عن شخصيات نسوية في حياة محمد عليه الصلاة والسلام ، تكتبها سيدة ، ولهذه السلسلة صلة وأثر في تاريخ الحياة الاسلامية من نواح متعددة على ما أرجو وآمل لها هذا الأثر بسووعها المختار ، وبالمؤلفة صاحبة الاختيار ، ولها هذا الأثر بسننها الذي تسلكه في اخراجها ، ولها هذا الأثر على حياة التاريخ بأسلوب أدائها (١)



والى القارئ كلمات قصار ، في بيان هذه الآثار على تاريخ الحياة الاسلامية . فأما موضوع السلسلة التي منها هذا الكتاب فهو حياة سيدات في تاريخنا ، يجلن في غير المجال السياسى الذى عنى الأولون بأخبار حركاته الظاهرة دون المؤثرات المستترة ، مهما تكن قوية والمرأة كما نعرف من أقوى تلك المؤثرات أو أقواها ، فهي - كما قيل - تهز المهد بيسينها وتهز العالم بيسارها ، وهى التى قيل عنها : « فتش عن المرأة » وما هذا التعرض للشخصيات النسوية الا التفتيش عنها باعتبارها عاملاً فعالاً في سير الحياة ، وفهم الأحداث وتصور شخصيات الرجال

واذا اختارت احدهن هذا الموضوع النسوى فالمرجو أن تستشف من أسرار أرواحهن ما لا يستشف غيرها ... فالأثنى أفهم للأثنى

(١) مصدر عن هذه السلسلة ، كتب : أم النبى ، ونساء النبى ، وبنات النبى ، وبطلة كربلاء ، نشرتها دار الهلال ، وترجم أكثرها الى اللغات الفارسية ، والاردية ، والاندونيسية

هذه ناحية التأثير بالموضوع المختار ، ومن اختارته .. وهو تأثير كبير على فهم مجرى الحوادث ، وشخصيات أبطالها وأما أثرها بالمنهج الذى تتبعه ، ففىما يجب من نقد المرويات المتفرقة عن هذه الشخصيات نقدا يكشف عن صحتها والاستنتاج منها ، أو يبين انها أسطوريات لها دلالتها الاجتماعية على أنفس مخترعيها - وهو النقد الذى يتقدم الدرس التاريخى ..

وأما أثرها بأسلوب الأداء فى اخراجها ، فلأنها تختار أسلوب العرض الأدبى ، المتحرر من جفاف الأداء المنطقى ، المسامت لآفاق العرض فى القضية التاريخية . وفى هذا اللون من العرض يكمل الكاتب الحادث التاريخى بما يستلهم من نفسية صاحب الحادث ، وجو الحادثة ، وروح البيئة ، ومألوف النفس الانسانية ، وسنة الاجتماع البشرى . ولا يكون ذلك الا بعد تمثل تام للبيئة ، والمعيشة مع أشخاص الحادث ، والتمرس بتجارب نفسية مما عانى أصحابها ، والبصر بنظام المجتمع الانسانى الذى ينتظمهم

وفى كل أولئك فرص للتحليل ، الذى يسعف على تحليل الحوادث والانطلاق الى نتائجها وأهدافها وهو ما نرجو أن يكون فى هذا الكتاب ، وسائر حلقات السلسلة شىء منه ، فتكون خطوة أو خطوات فى ميدان الدرس التاريخى المحدث الذى يحتاج اليه تاريخ الحياة الاسلامية ، ولما يتم منه شىء كثير

وبعد ..

فان صاحبة هذا الكتاب ، ربيبة مدرسة أدبية أنا أنتسى اليها .. ثم هى ربة بيت أنا آوى اليه .. وفى بعض هذا ما يؤثر على التقدير ، ويهز سلامة الحكم .. ومن أجل ذلك أستغفر الحق والانصاف ، بين يدي القارئ الكريم ، من شىء يكون قد غلب فيه القلم على أمره ... وقد بلغت اذ نبهته الى منشئه .

الفصل الأول

في بيت النبوة

- وافد غريب
- اللقاء الأول
- في بدء الطريق
- طفولة مرحلة
- في دوامة الأحداث
- .. مذبحة كربلاء

واقف غريب

أخذ أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » مكانه في المجلس ، والى جانبه
سهر الرسول وابن عمه « على بن أبى طالب » كرم الله وجهه ، وولده
الحسن والحسين . ابنا الزهراء وسبطا الرسول صلى الله عليه وسلم .
ومن حولهم جلس نفر من أئمة الصحابة وأعلام المسلمين . يتحدثون
فيما أضاء الله على الاسلام من نصر ، وما أزال لهم من سلطان . وبيننا هم
في ذلك المجلس ، استأذن واقف غريب فأذن له أمير المؤمنين ، وما في
المجلس يومئذ من كان قد رآه من قبل رأى العين . على انه ما كان يظهر
بالباب . حتى تعلقت به الأبصار . وهو يتخطى رقاب الناس الى الخليفة ،
ليقدم اليه التحية

وأمسك القوم عن الحديث . وبودهم لو يعرفون من يكون هذا
الرجل الذى تبدو عليه سمات الشرف والسؤدد ، وقد تولى عنهم الخليفة
هذا الامر ، فسأل زائره : من يكون ؟ ..

فأجاب الواقف في تودة ورزاقه :

— امرؤ القيس بن عدى بن أوس

وحينئذ عرف القوم فيه سيد بنى كلب : وكان لا يزال على نصرانيته .
فقال قائل منهم :

— يا أمير المؤمنين ، هذا صاحب بكر بن وائل الذى أغار عليهم
في الجاهلية يوم فلج

وتحدث « عمر » الى ضيفه مليا ، وملء خاطره سؤال واحد : أكرمهم
الله بأن يدخل « امرؤ القيس بن عدى » الاسلام على يديه ؟ ..
وأسلم سيد بنى كلب

واذ ذاك لم يتردد أمير المؤمنين في أن يعقد له اللواء على من أسلم من
قضاة بالشام (١)

ودعا « عمر » برمح ، وقلده اياد ..

هكذا في أول لقاء ، وليس للرجل سابقة في الاسلام !

أو كما قال « عوف بن خارجة المري » - وكان يومئذ بالمجلس :

« فوالله ما رأيت رجلا لم يصلّ الله ركعة قط ، أمّر على جماعة من

المسلمين قبل امرئ القيس ! » (٢)

أجل ، ولكنه عمر الفاروق ، ذو البصر بالرجال ..

ونفض الرجل لينصرف ، فحيا الخليفة بتحية الاسلام ، وأخذ طريقه

واللواء يهتز فوق رأسه ، والأنظار تتبعه حتى جاوز مجلس أمير المؤمنين

منصرفا ...

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب - ٤٢٧ ط الدخائر
(٢) الأغاني : ١٥٧/١٤ ساسي

اللقاء الأول

ثم ما راع القوم الا أن رأوا « على بن أبى طالب » كرم الله وجهه ،
تأذن هو الآخر ، ثم يسرع وولداه معه ، فى أثر الوافد الذى خرج
يكا يحمل لواء بنى قضاة بالشام !
وحث « على » خطاه حتى أدرك امرأ القيس ، فاستوقفه محبباً ، ثم
م اليه يقول :

— أنا على بن أبى طالب ، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم
ههه ، وهذان — وأشار الى الحسن والحسين — ابنائى من بنته الزهراء .
فأقبل امرؤ القيس عليهم بكل وجهه ، وراح يملأ عينيه من آل النبى
ى لم يكتب له شرف صحبته ونعمة رؤيته ، والذى آمن برسالته
. لحظات .

واستطرد « على » رضى الله عنه قائلاً :

— وقد رغبتنا فى صهرك فأنكحنا !

فما تلبث امرؤ القيس أن قال :

— مرحباً بكم آل بيت النبى : قد أنكحتك يا على ، ابنتى
الحياة « (١)

ثم أقبل على سبطى الرسول وهو يضيف :

— وأنكحتك يا حسن ، « سلمى بنت امرئ القيس » ، وأنكحتك
سين « الرباب بنت امرئ القيس »

وانصرف بعد حين الى الشام ، وترك من وراءه دويلاً !

فلا حديث للناس يومئذ الا عن هذا الرجل الذى لقي أمير المؤمنين

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ٩٠/٥ ط مصر

عمر لأول مرة - وهو ما يعرفه - فخرج من حضرته بلواء من أسلم من بنى قضاة بالشام ، هو الذى لم يكن قد صلى لله ركعة قط ، كما قال « عوف المرى » !

ولقى صهر الرسول وابن عمه ، فخرج من أول مقابلة لهما ، وقد أخطبه احدى بناته الثلاث ، وظفر بالحسن والحسين - سبى الرسول وزين شباب بنى هاشم - خطيبين لبنتيه الأخريين : سلمى والرباب (١)



كان « الحسين » يوم خطبت له « الرباب » فى ريق شبابه ، يستقبل ربيع الثامن عشر ، ملء العيون والقلوب فتوة ومهابة وجلالا ، يرى فيه المسلمون صورة نبيهم الكريم عليه الصلاة والسلام ، ويجدون فيه نفحة عطرة من أثره ، وشعاعا بهيا من سناه ، حتى لقد بلغ من اعجابهم به ان ذاعت فيهم ذائعة تقول : انه معوذ بتعويذتين ، حشوهما زغب جناح جبريل !

أما « الرباب » فكانت ما تزال صبية غضة الصبا طرية العود ، مليحة وضيئة ، ذكية الملامح ، مرهفة الحس ، بادية الاعتزاز بشخصيتها وأبيها . وقد أرضاها بلا ريب ، أن يتصل سببها بنبي العرب ، وأن تدخل أشرف بيت فى قريش ، زوجة للحسين غدى النبوة

لكن صغر سنها حال دون التعجيل بالزواج ، فبقيت فى بيت أبيها تنهيا لدخول دنياها الجديدة ، وتستعد تملأ ذلك المكان الرفيع الذى حباها به القدر ..

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب - ص ٤٢٧ ذخائر

في بدء الطريق

جدت أحداث عقب ذلك أجلت زواج علي وابنيه من بنات امرئ
القيس بضع سنين

أحداث جسام ، شغل بها البيت النبوي ، كما شغل بها العالم الاسلامي
الذي اتسع بالفتوح التاريخية الكبرى ، فبسط لواء الاسلام على ممالك
الفرس والروم ، وورث عروش الأكاسرة والقيصرة والفراعين

فمنذ طعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أبا لؤلؤة المجوسي ، لأربع ليال
بتين من ذي الحجة عام ٢٣ هـ ، ونيارات المأساة - التي سوف تتمخض
عنها الأحداث - تتدافع من هنا ومن هناك ، ماضية في بلاء ولكن في عنف
وشراسة ، الى مركز التجمع ومسرح المأساة

منذ قتل عمر ، وصرفت الخلافة - لثالث مرة - عن علي بن أبي طالب ،
يسحب الفتنة العاشمة تلوح على الأفق ، منذرة بالعاصفة

فما رضى بنو هاشم قط ، أن تغدو الخلافة مرعى خصبا مستباحا
لـ«صبة بنى أمية بن عبد شمس ، وأن يلسحوا أيديهم - في خلافة عثمان
رضه - وهي تنصيد أزمنة الأمر العظيم ، في مهارة وتصميم ، وتلوى
بها الى قبضة زعيمهم معاوية ، ابن آكلة الأكباد

ولا رضى الصحابة قط ، أن يتحكم فيهم ولادة الحرفوا عن دبادئ
الاسلام وسيرة الرسول ، وأقبلوا يستكثرون من الأموال ويعيشون عيشة
البذخ والتترف ، وقد تجسمت أطماعهم واستشرت ذاتيتهم وهم بآمن
من غضب الخليفة ، بل في طمأنينة الى لينة وتساهله

ولا هان على وجوه المسلمين ، أن تقوم فيهم ارستقراطية مستترة ،
بأذخعة مغرقة ، أو كما قال « مالك الأشتر » لسعيد بن العاص الأموي ،

والى الكوفة لعثمان :

« أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا ، بستانا لك ولقومك ؟ .. والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيبا الا أن يكون كأحدنا » (١)
 وكان « عثمان » قد ولى سعيد بن العاص الكوفة ، بعد أن عزل « الوليد بن عقبة » فحزن الناس .. وتفجع عليه الأحرار والمماليك ،
 وسمعت الولاة يقرن ، وعليهن الحداد :
 يا ويلتنا قد عزل الوليد وجاءنا مجوعا سعيد (٢)

وطالت المغالبة ...

وخرج « الحسين وأخوه الحسن » ، فى الجيش الزاحف الى افريقية ، بقيادة « عبد الله بن سعد بن أبى سرح » عام ٢٧ هـ ، فى عشرة آلاف من قریش والأنصار والمهاجرين
 وأقام هنالك فى غزوته ، عاما وبعض عام ، ثم عاد الى المدينة منصورا ، فاحتفل البيت الهاشمى بزواجه من « الرباب بنت امرىء القيس » احتفالا بسيطا متواضعا ، وما تزال السحب متراكمة على الأفق ، وما يزال بنو أمية هناك فى الشام ، وفى غيرها من الأمصار ، يعدون للغد عدته ..

وأثمر الزواج ثمرته المباركة ، فوضعت « الرباب » ولدها عبد الله ابن الحسين (٣)
 وشغلت الأم بحضانة وليدها ...

على حين عاد تيار الأحداث فجذب أبا عبد الله الى صميم المعترك ... وكانت المدينة اذ ذاك قد ازدحمت بوفود الأنصار من شتى الأقاليم ، جاءوا يشكون انحراف الولاة واثرتهم وبغيهم ، والخليفة مغض ، والمغالبة بين الأحزاب تأخذ شكلا رهيبا وقويا شرسا ، والمرجل يهدر ويغلى

(١) تاريخ الطبرى : ٥٠/٥ ، ٨٨ وانظر معه حديث أبى ذر الثفارى فى الشام : ٦٦/٥

(٢) تاريخ الطبرى : ٦٢/٥

والاستيعاب فى معرفة الاصحاب ٦٢٣/٢ ط نهضة مصر
 (٣) المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى : نسب قریش

ويلتمس الانفجار

وقتل أمير المؤمنين ، ذو النورين « عثمان » بسيف الثائرين ، عصر يوم الجمعة ، من الثامن عشر من ذى الحجة عام ٣٥ هـ (١) وشبت الفتنة عاصفة هوجاء ...

وبويع أمير المؤمنين « على بن أبي طالب » ليمضى خمس سنين ، فى معارك متصلة ، آخذ بعضها برقاب بعض ، فما يكاد رضى الله عنه يفرغ من أحداها ، إلا ليخوض غمار فتنة أخرى على كره منه

الى أن غص بمرارة النصر كما لم يغص سواه بمرارة الهزيمة . وكان والحسن والحسين « أبدا الى جانبه ، يجرعان وياه غصص النصر فى حرب الفتنة العشواء التى راحت تمزق المسلمين بددا ، وتشطرهم طرائق قحدا والأمويون يزدادون على الهزيمة ، اصرارا على أن يثأروا من بنى هاشم ، ذاك الثار الذى ظلموا يتوارثونه أبا عن جد ، منذ انعقدت زعامة قريش فى الجاهلية لبنى هاشم دون بنى عبد شمس ، وتأيدت باصطفاء نبي الاسلام منهم ، فمتى يبلغون مثلها كما قال قائلهم ؟

— الا تكن نبوة ، فخلافة !

وقد عاش « أبو سفيان » حربا على النبی الهاشمی ، فلم یسلم الا مكرها يوم فتح مكة ، بعد معارك طاحنة امتدت ثمانى سنين وصالا ... وبقي ما عاش یرنو الى الأمر من بعيد ، بعد أن رأى انصراف الخلافة عن بيت النبی وبنی هاشم ، ورأى الولاية من بنی أمية یغلبون على الأمصار ، حتى لقد وقف يوما على قبر الشهيد « حمزة » صريع وحشى

— عبد هند — فقال :

— رحمت الله أبا عماره ، لقد قاتلتنا على أمر صار إلينا ! ومات « أبو سفيان » ، وترك لابنه ذلك العهد البغيض ... وهذا هو « معاوية » يمضى فى سبيل انفاذه ، وما يرتاب انه صائر اليه حيا ، مهما يطل الطريق ، وتلنو السبيل !

وكان الطريق يبدو طويلا ، وكأن لا نهاية له ...
فما كان لمعاوية أن يطمع في هزيمة خصمه البطل الذي لا يغلب « على
ابن أبي طالب »

ولا كانت أمانيه لتجرؤ على أن يحلم بانتزاع الأمر ، من الامام البطل ،
ما دام حيا ! فهل تمهله المنية ، الى ما يعد وفاة أمير المؤمنين على ؟
أو يسبقه هو الى الرحيل ، ويدع الأمر بينه وبين بنى هاشم ميراثا
لولده « يزيد » ، كما تلقاه هو ميراثا عن أبيه « أبي سفيان » وأمه
« هند بنت عتبة » ؟

وأجابت الأيام عن سؤاله !
لقد تولى « الخوارج » - عن غير عمد - تمهيد الأمر لمعاوية !
أردوا أمرا ، وأراد الله غيره فكان ما أراد الله !
كانوا قد بدأوا يتمرّدون على أمير المؤمنين ، منذ قبل خدعة « التحكيم »
وهو الظافر المنتصر

وأنكر منهم هذا التمرد ، والتقى بهم في معركة النهر التي كلفتهم
غاليا ، وجرعته مزيدا من مرارة النصر
وتآمروا فيما بينهم ، أن يريحوا المسلمين من ابطال التحكيم الثلاثة :
معاوية ، وعمر بن العاص ، وعلى

قال ابن ملجم : أنا أكفيكم على بن أبي طالب
وقال ثان منهم : أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان
وقال ثالث : وأنا أكفيكم عمرو بن العاص
وتعاهدوا وتواثقوا بالله : لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذي
توجه اليه ، حتى يقتله أو يموت دونه
وضربوا لهم موعدا ، لسبع عشرة ليلة تخلو من رمضان ، عام
٤٠ هـ (١)

وقتل الامام على بسيف ابن ملجم ...
ونجا معاوية وعمر

وأصبح معاوية ، غداة يوم ١٨ رمضان سنة ٤٠ هـ ، والأمر منه قاب قوسين أو أدنى !

لقد بويح « الحسن بن علي » اثر مصرع أبيه ، لكن « معاوية » اعتصم بمعقله في الشام وأخذ البيعة لنفسه

ولم يطل بهما الخلاف ، فان « الحسن بن علي » لم يلبث - في أول سنة ٤١ هـ - أن تنازل عن الأمر لمعاوية بشروط خاصة (٢) حقنا لدماء المسلمين ، وارتياها في ولاء العراق ، ولكي يضع حدا لتلك الفتنة التي خضبت ساحة العالم الاسلامي الكبير ، بدماء القتلى والشهداء وبايح « الحسين » معاوية ، حتى لا تكون فتنة

وأدى فريضة الجهاد ، فاشترك في غزو القسطنطينية عام ٤٩ هـ وأبلى فيها خير بلاء

ومن قبل اشترك في فتح افريقيه وغزو طبرستان ...

وعاد فلزم « المدينة » ، يجلس في مسجد جده الرسول عليه الصلاة والسلام ، يروي الحديث ، ويشغل بأمور الدين « فيتخلق من حوله المسلمون وتهوى اليه أفئدتهم ، ويجدون فيه نفحات من نبهم عليه انصلاة والسلام : ويلتمسون لديه الخلاص ساعات من نوازع المادة ، وأسر الشهوات »

رآه « عبد الله بن عمر » ذات يوم مقبلا ، فهتف : « هذا أحب أهل الأرض الى أهل السماء اليوم »

ومعاوية - في دمشق - يمد بصره الى هذا المجلس على بعد ما بينهما ، ويحوم بفكره حوله ، حتى ليقول لرجل من حزبه استأذنه في السفر الى الحجاز :

« اذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة ، فيها قوم كأن علي رءوسهم الطير . فتلك حلقة أبي عبد الله الحسين ، مؤتذرا الى انصاف ساقيه »

(١) تاريخ الطبري ٨٣/٦

(٢) تاريخ الطبري : ٩٢/٦ وأنظر نص وثيقة الصلح وتحليلها في كتاب « صلح الحسن » للسيد الشيخ راضي ال ياسين : ٢٥٢ ط بمقداد ١٩٥٣

طفولة مريحة

في تلك الأيام ، كانت « آمنة بنت الحسين » (١) تحبو في رحاب البيت النبوي ، طفلة حلوة الملامح ، ذكية النظرة ، مريحة الطبع ، آسرة اللغات والبسمات

ولم يحدد لنا التاريخ عام ولادتها ، بل لا أعرف أحدا من كتاب السير الذين نقلوا إلينا أخبارها ، قد انتفت الى تاريخ مولدها أو أشار إليه . وكنا بحيث نمر بهذا الصمت غير مبالين ، لو أن الأمر ليس بذى أهمية ، لكننا سنرى هذه الطفلة عندما شبت ، تشغل في المجتمع القرشي مكان السيدة الأولى في عصرها ، وسوف تشغل هذا المجتمع - ورواة الأخبار على مر العصور - بما اشتهرت به من حسن وملاحة ، وبحياتها الزوجية الحافلة . ولن نستطيع أن نتمثل هذه الحياة الخصبة الحافلة للحسناء الهاشمية ، اذا لم نعرف تاريخ مولدها ، ان لم يكن على وجه التحديد ، فعلى وجه التقريب المستطاع . وموضوع حاجتنا الى هذا ، ان تاريخ المولد ، هو الذي يحدد لنا عمر « بنت الحسين » في مختلف مراحل حياتها التي لم يعرف زمنها حياة أحفل منها ، واذا أمكن أن نتجاهل مسألة السن في حياة رجل ، فليس من الهين أن نفعل ذلك مع أنثى ، وبخاصة اذا كانت هذه الأنثى ، هي « آمنة ، سكينه بنت الحسين » ..! وحين نحاول أن نلتمس من أخبارها ، ما يعين على تقدير تاريخ مولدها ، نجد - أول ما نجد - ذلك الخبر الذي يشير الى وفاتها وهي في نحو السبعين من عمرها

ولا خلاف بين كتاب السير ، في وفاتها عام ١١٧ هـ . ذكر ذلك « ابن خلكان » في وفيات الأعيان (٢٩٨/١) و « الطبري » في تاريخه (سنة

(١) سميت باسم جدة أمها الزهراء : آمنة بنت وهب ، أم الرسول صلى الله عليه وسلم . وسكينه لقب لها ، وبه اشتهرت . انظر الاغانى ١٥٧/١٤ ساسى

١١٧ هـ) و «الذهبي» في الشذرات (حوادث سنة ١١٧) وذكرته المصادر الشيعية في (مقتل الحسين : ٣٦٨) للسيد عبد الرزاق الموسوي ، ودائرة المعارف الإسلامية (مادة : سكينه) ولا نعلم أنهم اختلفوا في هذا التاريخ

فالقول بوفااتها وهي في نحو السبعين من عمرها ، يجعل مولدها في حوالي عام ٤٧ هـ ، بعد سبع سنوات من مقتل جدها الامام «علي» كرم الله وجهه ، وانتقال الخلافة الى «معاوية» كبير البيت الأموي فإذا أضفنا الى هذا ، ما ذكره رواية سيرتها ، من أن ابن عمها «الحسن» ، تقدم الى عمه «الامام الحسين» يطلب أن يزوجه إحدى بنتيه : فاطمة أو سكينه فزوجه الامام أولاهما (١) ، كان مقتضى هذا ان «سكينه» أدركت سن الزواج في حياة أبيها رضى الله عنه ، وهو ما يؤيد الاستنتاج الأول الذي يبلغ بسنها أربعة عشر ربيعا : عندما استشهد أبوها الامام في كربلاء ، في شهر المحرم سنة ٦١ هـ

فلنا أن نطمئن اذن الى أن ولادتها كانت حوالي سنة ٤٧ هـ . وقد سميت باسم جدتها أم النبي ، ثم لقبها أمها «الرباب» ، «بسكينه» ، ولعلها لحظت أن نفوس آلهة الأكرمين كانت تسكن اليها لفرط مرحها واشراقها

وقد استقبل البيت الهاشمي قبلها مولد أخيها الشقيق «عبد الله بن الحسين» الذي استشهد مع أبيه رضى الله عنه

وكانت «سكينه» في طفولتها الحلوة الالهية ، خلية البال من تلك التهموم الكبار التي كانت تشغل آلهها وتلقى على الأفق من حولها ظلالا من الأسى ، منذ رزئوا ورزىء الاسلام بمصرع أمير المؤمنين «الامام علي» ، قبل مولد «سكينه» بنحو سبعة أعوام ، ثم بموت عمها «الامام الحسن» سنة ٥٥ هـ (٢) ، و «سكينه» في نحو الثالثة من

(١) المصنف الزبيرى : نسب قریش - ٥٧

والاغاني : ١٥٨/١٤ ط الساسي

(٢) تاريخ الطبري : حوادث سنة ٥٠ هـ

ونسب قریش : ص ٤٠ وصلح الحسن : ٣٦١

عمرها ، فتأى بها صغر السن عن عمق الاحساس بالفاجعة المزدوجة التي أملت بالبيت الكريم

والاخباريون يروون من أخبار « سكينه » في طفولتها المرحه ، ما يؤكد انها كانت مبعث انس لآلها الكرام ، ولأبيها « الحسين » بوجه خاص ، يسكن الى مرحها وظرفها في تلك الظروف العصيبة التي كانت تؤده . ويبدو انه عوتب في اهتمامه المفرط « بسكينه » ، واسرافه في الانس اليها والى أمها « الرباب » ، فلم يصنع فيهما الى عتاب ، بل قال :
لعمري اننى لأحب دارا
تضيفها « سكينه » ، و « الرباب »

أحبهما وأبذل بعد مالى
وليس للآئمة فيها عتاب
ولست لهم وان عتبوا مطيعا

حياتى ، أو يفينى التراب (١)
والبيتان الأولان ، رواهما الأصبهاني في « مقاتل الطالبين ص ٩٠ » ، وجاءا في « الأغاني ١٤/١٥٨ » هكذا :

لعمري اننى لأحب دارا
تكون بها « سكينه » و « الرباب »
أحبهما وأبذل كل مالى

وليس لعاتب عندي عتاب
وفي خبر رواه صاحب الأغاني (٢) عن « مالك بن أعين » ، انه سمع « سكينه بنت الحسين » ، رضى الله عنهما ، تقول : عاتب عمى « الحسن » أبى فى أمى ، فقال هذه الأبيات . وان صح هذا الخبر ، كان فيه ما يدل على ان « الامام الحسين » بالغ في الاهتمام بزوجه وطفلته ، الى حد لفت أخاه الكبير ودفعه الى التدخل فى أخص شئون أخيه ، بالملامة والعتاب . ونحن قد اطمأنا الى أن « سكينه » ولدت حوالى سنة ٤٧ هـ .

(١) فى نسب قريش : ص ٥٩ * لعمرك اننى لأحب دارا *
(٢) ج ١٥٧/١٤ ساسى

وقد توفي عمها « الحسن » ، في سنة ٥٠ هـ . و « سكينه » في السنة الثالثة من عمرها . واذن فقد كانت منذ طفولتها ، مبعث أنس خاص لأبيها الامام الذي رأى أخاه ينزل عن الأمر « معاوية » ، ويبيعه أميراً للمؤمنين بعد كل الذي كان !

ترى هل كان « الحسين » في اقباله المسرف ، على « الرباب » ، و « سكينه » يريد أن يتشاغل عن نذر عاصفة أخرى بدأت تلوح له على الأفق البعيد ، وان ظن أخوه وظن كثير غيره ، ان تنازل « الحسن » قد وضع حدا للفتنة وعصم المسلمين من حرب هوجاء قاسية لا ترحم ! ؟ ..

ترى هل كان يفر الى طفلته ، هذه الذكية المرححة الحسناء ، من خاطر كان يثوده حين يخلو الى نفسه ، مؤكداً له أن تضحية « الامام الحسن » ، لن تذهب هدرا فحسب ، ولكنها زادت بنى أمية تشبثا بالأمر الذي استقر بين يدي « معاوية » وهيئات أن يتركوه يخرج من أيديهم مرة ثانية ، وهم الذين كافحوا في سبيله نصف قرن أو يزيد ؟

فقد بايع « الحسين » نفسه « معاوية » — بعد صلحه مع « الحسن » — وماله ، رضى الله عنه ، في الخلافة مطمع ، ولكنه لم يلبث أن أدرك ، أن الفتنة لم تهدأ الا الى حين ، فما كان « ابن هند » بالذى يرضيه أن ينولى الخلافة زمنا يطول أو يقصر ، ثم يتركه ليعود الى البيت الهاشمي ، أعداء الأمويين من قديم الزمان !

ولو قد فعلها ، لباء بلعنة أبيه « سفيان » ، الذى قال للعصبة الأموية يوم تولى « عثمان » رضى الله عنه الخلافة :

— يا بنى أمية ، تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذى يحلف به « أبو سفيان » ، ما زلت أرجوها لكم ، ولتصيرن الى صبيانكم وراثته لو فعلها ، لطارده صدى من صوت أمه « هند » ، تصيح : ثكلته أمه ان رضى بهذا ..

هيئات هيئات !.. فما اتزع « معاوية » الخلافة الا ليثبتها في بيته ،

ويستخلصها لقومه من بنى أمية

ولكن كيف يجرو ، والعهد بينه وبين « الحسن » قائم ؟ (١)
ظل المسلمون في ريب من هذا ، أما « الحسين » عليه السلام ، فما
غاب عنه أن لذاك الأمر ما بعده ، وكلما أمعن النظر ، بدا له الليل
طويلا .. لا نهاية له ولا آخر .. (٢)

وحاول مع ذلك ألا يسبق الأحداث ، وأعاناه على هذا ، أن استغرقته
العبادة وأمور الدين فإذا آب من المسجد الى بيته ، فتمة « سكيئة »
تملأ الأفق من حولها اشراقا وسنى ، وتكاد تنسيه — الى لحظات — ما
يشغله من خواطر تسرى به الى ليل الهموم
حتى مات « الحسن » ...

وذاع انه مات مسموما بيد زوجته « ابنة الأشعث » بتحريض من
« معاوية » على أن يزوجه ولده « يزيد » ويعطيها مائة ألف درهم ،
ففعلت ... وسوغها المال ولم يزوجه من ولده . (٣)
وتأهب « الحسين » لمعركته ضد هذا الجبروت الظالم الذي لا يلوى
على شيء ..

ضد هذا الباطل الغاشم ، الذي لا يرعى حرمة ولا عهدا ، ولا يخشى
عاقبة ...
ضد هذه العصبة الباغية ، وقد خلا لها الجو الا من « أبى عبد الله
الحسين »



ثم لم تلك الا أعوام معدودات ، حتى أمسك التاريخ أنفاسه ووقف
يرقب « معاوية » وهو يجلس في قصر الخلافة بدمشق ، ليأخذ البيعة
علنا لابنه « يزيد » سنة ٥٦ هـ ، بعد أن مهد لها طويلا (٤) ، فلم ينتر

(١) اطر الرسائل بين الحسن ومعاوية في (مقاتل الطالبين : ص ٥٥ ومابعدها)

وانظر نص العهد في « صلح الحسن » ص ٢٥٢ وما بعدها

(٢) تاريخ الطبري : ٩٢/٦

وانظر مروج الذهب للمسعودي : ٢٣٠/٢

(٣) مقاتل الطالبين ص ٧٣ - وفيه أن ابنة الأشعث تزوجت رجلا من آل طلحة ، وولدت
له أبناء عموا بأنهم بنو ممة الأزواج . وانظر « صلح الحسن : ٣٦١ »

(٤) تاريخ الطبري : ١٦٩/٦

دقيقة واحدة عن السعى لها منذ تم له النصر الحاسم بصلح « الحسن » ،
ثم بموته بعد عشر سنوات من استقرار الأمر « معاوية »
وعشر سنوات ليست قليلة ، اذا حسبناها بالدقائق ، وما نام « معاوية »
دقيقة عن هدفه

ولكن وجود « الحسين » جعله يحتاج الى ست سنوات أخرى من
كفاح دائم عنيد

وكانت بين يديه خزائن المال يشتري بها من شاء
فمن عصى على المال اشتراه بالدهاء والمكر والملاينة
ووكل الباقين الى الخوف من هبة السلطان وجبروت الحاكم
نقل « المبرد » في الكامل : ان « معاوية لما نصب « يزيد » لولاية
العهد ، أقعد في قبة حمراء ، فجعل الناس يسلمون على « معاوية » ثم
يسلمون الى « يزيد » ، حتى جاء رجل ففعل ذلك ، ثم رجع الى « معاوية »
فقال :

— يا أمير المؤمنين ، اعلم انك لو لم تول هذا — وأشار الى
« يزيد » — أمور الناس لأضععتها

« وكان « الأحنف بن قيس » جالسا ، فقال له معاوية : ما بالك
لا تقول يا أبا بحر ؟ .. فقال « الأحنف » : أخاف الله ان كذبت ، وأخافكم
ان صدقت . فقال معاوية : جزاك الله عن الطاعة خيرا . وأمر له بأنوف
« فلما خرج الأحنف ، لقيه الرجل بالبواب فقال : يا أبا بحر ،
ابى لأعلم ان شر من خلق الله ، هذا وابنه !.. ولكنهم قد استوثقوا من
هذه الأموال بالأبواب والأقفال ، فلنسنا نطمع في استخراجها الا بما
سمعت ! » (١)

اذن فقد فعلها

فعلها في جرأة عاتية ، فجعل الخلافة في بيته الأموي ملكا موروثا ،
وهرقية كلنا ذهب هرقل جاء هرقل ...

وأخذ البيعة « ليزيد » ، أميرا للمؤمنين من بعده ، وانه لينزع بالوراثة

(١) بنية الأمل التامل : ١٦٥/١ - ط ١٩٢٧

الى جدته آكلة الأكباد ، ويزدهيه هذا الملك العريض الذى خلص لآل
« أبى سفيان » ، ويذهب فى حياته مذهب الفتيان المترفين ، مجاهرا
بالفسق معالنا بالمعصية !

ورنت القلوب — كل القلوب — الى « الحسين بن على » سبط
الرسول ، وغذى النبوة ، والمثل الكامل للرجولة والعظمة والتقوى
والايمان

وامتدت الأيدى — كل الأيدى — الى « معاوية » تبايعه على ولاية
العهد « ليزيد » ، وهم أحد ثلاثة : رجل يعلم أن « يزيد » شر من خاق
الله ، ولكن بيديه مفاتيح الخزائن وأقفال بيت المال
وثان يخاف الله أن كذب ، ويخاف « معاوية » أن صدق
وثالث حذر فطن ، قد يؤس من خروج الأمر من الأمويين بعد أن
صار اليهم ، فساير وداور

ولم يتخلف عن البيعة « ليزيد » الا خمسة من وجوه أهل المدينة :
« الحسين بن على » ، و « عبد الله بن الزبير » ، و « عبد الرحمن بن
أبى بكر » ، و « عبد الله بن عمر » ، و « عبد الله بن عباس » (١)
وتكتلت حول بيت الرسول ، معارضة قوية ، أنكرت أن تغدو الخلافة
هرقلية ، وأن يتول أمر المؤمنين الى مثل « يزيد »
ولم يعد « عبد الله بن همام » الحق ، حين قال :
فان تأتوا « برملة » أو « بهند »

نبايعها أميرة مؤمنينا
حشينا الغيظ حتى لو شربنا
دماء بنى أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم

تصيدون الأراب غافلينا ! . .
وأغضى « معاوية » عن ذلك نفر الخمسة ، الذين امتنعوا عن البيعة
ليزيد ، بقدر ما أسرف فى التشكيل بمن شايعهم علنا . وبلغ به الأمر أن قتل

« حجر بن عدى » وستة من أصحابه ، لأنهم أنكروا أن يسب الامام « على » على منبر الكوفة ! (١) وحين غضب عابد قریش « محمد بن أبى بكر » لهذا المنكر ، وكتب الى « معاوية » يذكره بفضل الامام « على » وقديم سوابقه ، رد عليه يقول :

« قد كنا وأبوك فينا ، نعرف فضل « ابن أبى طالب » وحقه لازما لنا مبرورا علينا ، ثم كان أبوك ، و « عمر » ، أول من ابتزه حقه وخالفه على أمره .. فان يك ما نحن عليه صوابا فأبوك استبد به ونحن شركاؤه ، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا « ابن أبى طالب » ولسلمنا اليه ، واكننا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا فأخذنا بمثله .. فعب أباك بما بدا لك أو دع ذلك ، والسلام على من أناب » (٢)



أين كانت « سكينه » من هذا كله ؟ ..

كانت هناك دائما الى جانب أبيها ، تتبعه خواطرها وقلوبها اذا غاب عنها ، فاذا آب الى بيته كانت هى أسرع أهله اليه وأقدرهم على ايناسه ، فما يكاد يلمح ابتسامتها الوضيئة حتى يسكن اليها ويندمج لحظات في جوها المرح وعالمها الظريف

وكانت في ذلك الوقت ، قد تجاوزت مرحلة الطفولة وشارفت مطلع الشباب ، فما عادت بحيث يغيب عنها الذى يعاينه أبوها من هموم كبار ، لكنها كانت قادرة على أن تطوى همومها ساعة تلتقاه ، لعلها بذلك تنسيه بعض همومه

ولم تفتتها صغيرة ولا كبيرة من أنباء ذلك الصراع المحتدم بين حق أبيها وباطل خصومه ، بل لقد شاركت في هذه المعركة بكل وجدانها اليقظ وحسها المرفف ووعيتها الذكى ، وان بدت خلية البال ، لا هم لها الا أن تملأ البيت بدعابتها المرحه ، والا أن تمنح أباها المناضل - الذى

(١) تاريخ الطبرى : ١٤١/٦ - وفيه أن السيدة عائشة قالت لمعاوية بعد مقتل حجر : يا معاوية ، أين كان حليمك عن حجر ؟ فأجاب : يا أم المؤمنين ، لم يحضرنى رشيد
(٢) المسعودى : مروح الذهب : ١٩٤/٢

ما بات منذ وعى وأدرك ، إلا على حق يزود عنه أو باطل يدفعه باليد
واللسان والقلب - بعض أنس وراحة
وربما شهدتها الليالي ساهرة مسهدة تحاول عبثاً أن تذود عن
مضجها أشباح الهم التي تؤرق منام أبيها ومنامها معه ، لكنها ماسمعت
شاكية ، ولا رؤيت باكية ، بل تغدو مع مشرق الشمس ، ملء الاشرار
والمرح ، حتى لقد بدا لبعض أهلها أن يسألها ذات مرة : « انك نتمزحين
كثيراً ، وأختك فاطمة لا تمزح ؟ » فأجابت من فورها : « لأنكم
سميتموها باسم جدتنا المؤمنة ، وسميتمونى باسم جدتنا الأخرى » تعنى
« فاطمة الزهراء » ، و « آمنة بنت وهب » (١)

وفى جوابها ما يدل على وعيها لما ألم بجدتها من أحزان ، وتمثلها أياها
فى الأشهر الأخيرة من عمرها ، لا يرقاً لها دمع على أبيها العظيم - صلى
الله عليه وسلم - حتى لحقت به .. (٢)
واذن فلم تكن بغافلة عن هموم آلهة وأحزانهم ، ولكنها ما كانت نطق
أن تكتب ، وهى تعلم أن أباه رضى الله عنه يلتبس لديها ما يعينه على
احتمال عناء طال ، ولا تبدو له نهاية !
يلتمسه لديها وحدها ، فى حضن أمها « الرباب » مع أن بيت
« الحسين » اذ ذاك كان يضم زوجات أخريات وأبناء آخر ..



وهنا ، تقف لحظة لتلقى نظرة على أفراد البيت الكريم ، الذى كانت
« سكينة » مبعث الأنس فيه
فهناك ، كان « عبد الله بن الحسين » ، شقيق « سكينة » من أمها
« الرباب بنت امرئ القيس بن عدي » (٣)
وكان هناك أخوها لأبيها ، « على » الأكبر ، ابن « الحسين » ، وأمه
« ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفى » ، وأمها « ميمونة

(١) الاغانى : ١٥٨/١٤ ساسى

(٢) انظر حديث الزهراء بعد وفاة أبيها الرسول ، فى كتابنا « بنات النبى » ص ٢٠٠

ومابعد ط ٣ : دار الهلال ١٩٦٣

(٣) نسب قریش : ٥٩

بنت أبي سفيان بن حرب « ، وفيه قال « معاوية ؟ : « أولى الناس بهذا الأمر » علي بن الحسين بن علي « ، جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه شجاعة بني هاشم ، وسخاء بني أمية ، وزهو ثقيف « ! (١)

وكان هناك كذلك « ، علي « الأصغر « زين العابدين » مع أمه « سلافة بنت يزيد جرد » آخر ملوك فارس ، وقد سببت مع أختين لها في معركة فتح بلاد الفرس ، وجرى بهن إلى « عمر » مع السبايا الأخريات ، فأمر رضى الله عنه ببيعهن جميعا ، لكن « الامام علي » تدخل لأعفائهن من هذا الموقف الأليم ، وقال للخليفة : « ان بنات الملوك لا يعاملن معاملة السوق » ، فسأله « عمر » : « وماذا أفعل بهن ؟ » فأجاب : يتقوّن من ، ومهما يبلغ ثمنهن يدفعه من يختارهن

وقتومت بنات يزيد جرد ، فأخذهن « علي بن أبي طالب » ، واختار لهن خير ثلاثة من شباب قريش ، فكانت الأولى « للحسين بن علي » ، وقد ولدت له « عليا » الأصغر

والثانية « لمحمد بن أبي بكر الصديق » ، فولدت له « الفاسم »

والثالثة « لعبد الله بن عمر » ، فولدت له سالما !

فيقال ان أهل المدينة كانوا يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد ، حتى نشأ فيهم « علي بن الحسين » ، و « الفاسم » ، و « سالم » ، ففاقوا أهل المدينة فقها وورعا ، فرغب الناس في اتخاذ السرارى

وقد كان « علي الأصغر » أكبر من أخته « سكينه » بنحو عشر سنوات ، اذ ولد رضى الله عنه سنة ٣٨ هـ (٢) فأدرك مقتل جده « الامام علي » ، وعرف عنه — منذ صغره — العكوف على العبادة ، والزهد فى ملاذ الدنيا ، والانصراف عن اللهو ، مما أعده ليكون — بعد استشهاد أبيه — وبقية أهل بيته فى كربلاء — من أشهر البكائين فى تاريخ الاسلام (٣) وانما سمي « عليا » الأصغر ، تمييزا له عن أخيه « علي » الأكبر ،

(١) الاصفهاني : مقاتل الطالبين — ٨٠

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٤٥٥/١ بولاق وانظر معه (عيون الاخبار لابن قتيبة)

٨/٤ دار الكتب . وتذرات الذهب : ١٠٥/١ لابن السامد الحنلى

(٣) ارجع الى كتاب « مقتل الحسين » ص ٤٥٠ : ٤٥٤

وأمه « ليلى بنت أبى مرة بن عروة بن مسعود الثقفى » ، أحد صحابة الرسول (١)

وأخ رابع « لسكينة » ، هو « جعفر بن الحسين » ، وأمه من قبيلة بلى (٢)

ثم كانت هناك أختها لأبيها : « فاطمة بنت الحسين » ، قيل انها كانت منقطعة النظر في الجمال ، لكنها لم تكن مريحة كأختها « سكينة » ، ولعل ذلك راجع الى ظروف خاصة بها وبأمرها « أم اسحق بنت طلحة بن عبيد الله التيمى » (٣)

فأفقد كانت « أم اسحق » ، إحدى بنات تيم اللواتى اشتهرن بالجفوة والخشونة في معاملة الأزواج وفى « نسب قریش » انها تزوجت « الحسن ابن على بن أبى طالب » ، فولدت له ابنه طلحة ، ثم تزوجت أبا عبد الله « الحسين » فولدت له فاطمة (٤) ، وليس فى مصادر سيرة بنى على ، ما يشير الى انفصال أم اسحاق عن الحسن ، هل كان بطلاق أو ترميل . لكننا نميل الى الظن بأنها طلقت منه ، لأن زواج بنتها فاطمة كان فى حياة أبيها « الحسين » وقد قتل رضى الله عنه فى المحرم من سنة ٦١ هـ ، ومن المستبعد أن يكون قد تزوج من أم « اسحاق » بعد موت أخيه الحسن عام ٥٠ هـ ، وولدت لهما فاطمة التى أدركت سن الزواج قبل عام ٦١ هـ ..

وأيا ما كان الأمر ، فتجربة الطلاق أو الترميل ، غير هينة على مثل « أم اسحاق » ولعلها زادتها جفوة وصرامة ، حتى ليقول « الحسين » رضى الله عنه فيها : « والله لربما حملت منى ووضعت وهى مصارمة لى ما تكلمنى ! »

وفى ظرف كهذا ولدت له ابنته « فاطمة » ، وفيها ميراث بنات تيم ،

(١) نسب قریش : ٥٧ - والاصابة : ١٧٤/٧ مصر

(٢) نسب قریش : ٥٩

(٣) نسب قریش : ٥٠

(٤) نسب قریش : ٥١

ومثله فى جمهرة أنساب العرب : ٣٤ ، ١٢٩

وأثر تلك الظروف القاسية ، فأعوزها ما كان « لسكينة » من مرح وبساطة وإيناس

هؤلاء هم اخوة « سكينة » : « عبد الله » شقيقها ، و « على » الأكبر ، و « على » الأصغر ، و « جعفر » ، و « فاطمة »

ولم يفت القوم انه مثقل ، اذ يروى أن رجلا قال لأحد بنى الحسين : ما أقلّ ولد أبيك ؟ .. فكان جوابه : « العجب أن يكون له ولد ، وهو الذى ما رؤى الا عاكفا على العبادة والجهاد »

وقد كانت حياة « الحسين » كلها جهادا : مع النفس ، ومع الباطل أينما كان ..

وقد عاش بنوه الأربعة ، وبناته « فاطمة » و « سكينة » حتى بلغت معركة ذروتها الرهيبة ، ولكن « سكينة » هى التى استأثرت من دونهم جميعا ، بأنها كانت مبعث أنسه وراحته ..

نعم ——— اننى لأحب دارا

تكون بها «سكينة» و «الرباب»

في دوامة الأحداث

من قريب ، وقفت « سكينه » - وقد جاوزت مرحلة الطفولة - نرقب الأحداث وهي تندفع نحو ذروتها المشؤومة في عنف شرس ، وترنو الى أبيها الحبيب ، في صميم الدوامة ، يمضي الى المصراع الدامي ، دون أن يمالك عنه حولا !

فمنذ أخذ « معاوية » العهد لابنه « يزيد » ، وغذى النبوة هو قطب الصراع ومحور الأحداث وهدف المعركة .. المعركة الطويلة العنيدة ، التي بدأت مرحلتها الأولى بين « أبي سفيان بن حرب » وعمره صلى الله عليه وسلم ، ثم انتقلت الى صراع بين « معاوية بن أبي سفيان » و « علي » صهر الرسول وابن عمه ، وهاهي ذي تنتقل - كأنها ميراث محتكم - الى دورها العنيف ، بين « يزيد بن معاوية » ، حفيد « أبي سفيان » و « هند » ، وبين « الحسين بن علي » ، حفيد الرسول وولد « الزهراء » :

عبد شمس أضرمت لبنى ها
شم حربا يشيب منها الوليد
فابن حرب «المصطفى» ، وابن «هند»

« علي » ، و « الحسين » « يزيد »
والتاريخ المروى لا يذكر أن « يزيد » أخذ مكانه في الصراع ، أيام أبيه « معاوية » ، ولكن الذي لا ريب فيه انه لبث منذ بويع وليا للعهد سنة ٥٦ هـ ، الى وفاة « معاوية » سنة ٦٠ هـ ، يتدبر موقفه من « ابن الزهراء » ، ويستعد على مهل لمعركة عاتية تحسم هذا الموقف المعلق الذي ظل أكثر من نصف قرن ، حائرا مترددا ...

ما من شك ، انه قدر أن الخلافة لن تصفو له ، وفي الناس هذا : « الحسين » الامام ، يفرض سلطانه على كل القلوب ، وكل الضمائر ، ويغزو المجتمع الاسلامي ، بجاذبيته الآسرة ، وشخصيته التي يحف بها سنا - أي سنا - من نور النبوة ، وجلال الايمان ، وسمو الخلق ، ومهابة الحق ، ووقار السمات ، ونبل الطباع ، واكتمال الرجولة والانسانية حتى مات معاوية بعد أن وطأ الأمر لولده ، ولم يعد يخاف عليه الا من بضعة نفر من قريش ، أولهم « الحسين بن علي » كما قال في وصيته ليزيد (١)

وورثه « يزيد » . وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة ، في هلال رجب ، سنة ٦٠ هـ

واذ ذاك ، بدأ يقود المعركة في قسوة ضارية وشراسة محمومة ، فكتب إلى عامله بالمدينة - الوليد بن عتبة - أن يأخذ له البيعة فسرا ممن تخاف عنها من وجوه المسلمين هناك (٢)

فبايعه « عبد الله بن عباس »

وبايعه « عبد الله بن عمر » (٣)

وفر « عبد الله بن الزبير » إلى مكة ، مستعيذا بالبيت العتيق (٤) ، في طمأنينة الواثق أن دوره لهم يحن بعد !

وأبى « الحسين » أن يبايع ، بل كان جوابه الوليد :

« يا أمير .. انا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ، بنا فتح الله وبنا ختم . و « يزيد » فاسق فاجر ، شارب الخمر ، قاتل النفس المحرمة ، مهمل بالفسق ، مجاهر بالفجور ، ومثلي لا يبايع مثله ، ولكن نصبح وتصبحون ، وننظر وتنظرون ، أينما أحق بالبيعة والخلافة » (٥)

ومضى ...

(١) أنظر مص الوصية في تاريخ الطبري : ١٧٩/٦

(٢) أنظر نفس كتاب يزيد إلى عامله الوليد ، في تاريخ الطبري ١٨٨/٦

(٣) تاريخ الطبري : ١٦٠/٦

(٤) تاريخ الطبري ١٦٠/٦ ونسب قريش : ٢٣٩

(٥) السيد عبد الرزاق الموسوي : مثل الحسين ص ١٢

قال « مروان بن الحكم » - وقد كان حاضرا - « للوليد بن عتبة » :
 - عصيتني حين قلت لك ألا تدعه يمضى أو تضرب عنقه ! .. لا
 والله ، لا يمكنك مثلها من نفسه أبدا (١)
 فأجاب « الوليد » :

- ويحك ! .. انك أشرت على بذهاب ديني ودياري ، والله ما أحب
 أن أملك الدنيا بأسرها وانى قتلت « حسينا » !.. سبحان الله ، أأقتل
 « حسينا » لما أن قال لا أبايع ؟.. والله ما أظن أحدا يلقي الله بدم
 « الحسين » الا وهو خفيف الميزان عند الله (٢)
 يبايع أو يقتل ؟ !

على هذا صمم بنو عبد شمس !
 ومحال أن يبايع « الحسين » ...

محال أن يبايع مثل « يزيد » ، أميرا للمؤمنين ، مهما يبلغ من طفيلان
 السلطان وتحامل المتغلب، وجبروت الحاكم :
 ولست أبالي حين أقتل مسلما

على أى جنب كان في الله مصرعي !..
 وما كان « الحسين » طامعا في أمر من أمور الدنيا ، ولا كانت له في
 الخلافة رغبة ، ولكن اذا انتهى الأمر الى أن يصير « يزيد » أميرا
 للمؤمنين ، فلن يبالى « الحسين » ، على أى جنب يكون في الله مصرعه ،
 ليدفع هذا الباطل بقلبه ولسانه ، ثم بسيفه اذا لم يكن من القنال بد !..
 واذا رأى من والى المدينة اصرارا على حسم الموقف ، هاجر بأهله الى
 مكة ، حيث « عكف الناس على الحسين » ، يقدون اليه ويقدمون عليه
 ويجلسون حواليه ويستمعون الى كلامه وينتفعون بما يسمع منه
 ويضبطون ما يروون عنه « (٣)

(١) بنصه من الطبرى : ١٩٠/٦
 وانظر معه « نسب قريش » : ١٣٣ و « مقتل الحسين » : ١٢٨
 (٢) الطبرى ١٩٠/٦ ونسب قريش : ١٣٣
 (٣) ابن كثير : البداية والنهاية . ترجمة الحسين رضي الله عنه
 وانظر معه (تاريخ الطبرى) ٢٢٤/٦

وهناك ، في مهد الدعوة ، طافت « سكيئة » بأنحاء البلد العتيق ، ووقفت بالمشاهد التاريخية التي صنعت حياة أسرتها وحياة العالم الاسلامي أجمع . وربما أتيح لها وقتئذ أن ترقب النشاط الأدبي الذي كانت مكة بوجه خاص ، والحجاز بصفة عامة ، مركزا من أهم وأفضل مراكزه ، وحيث كان عدد من شباب الأنصار وقتية قريش ، قد عمرت بهم أندية انشعر وعجالس الطرب والغناء ، وازدهرت في تلك البيئة الأرستقراطية ، مدرسة خاصة في الغزل ، كما ازدهرت صنعة الألحان وفن الغناء

وأهل موسم الحج من عام ٦٠ هجرية ، و « سكيئة » مع آلهها في مكة ، فأتيح لها أن تشهد بعينيها وتسمع بأذنيها ، كل ما كان يدور في مكة ، في ذلك الموسم بخاصة ، من ضجيج أدبي حافل صاحب ، وان راحت في الوقت نفسه تصفى بكل قلبها وفكرها ، الى نشاط من نوع آخر ، كان أبوها الامام مصدره ومركزه معا ، فمنذ وفد « الحسين » الى مهد الدعوة الحمديّة ، وأوى الى مهبط الوحى الذى اصطفى له جده العظيم ، وجموع المسلمين تلتقى عنده ، تلتمس لديه ما يعصمها من غلبة الضلال ، وتلوذ به في حيرتها بين يقظة الضمير وعجز الوسيلة ، وتستمد منه زادا من القوة المعنوية ، تقوى به على مواجهة الطغيان المستبد !

وحين كانت مكة تستقبل عددا من شباب الحجاز وشعراء الغزل ، الوافدين عليها في موسم الحج ، كانت هناك جموع أخرى جاءت لغير ما جاء له شعراء الغزل. أولئك هم رسل العراق ، وفدوا على مكة يبايعون « الحسين » ابن بنت النبی ، على الجهاد في سبيل الحق المغتصب من أولى اناس به ، واسترداد الخلافة من بين يدي الفتى الأموى الذى تلقاها عن أبيه ميراثا هرقليا ، وليس لها بكفاء ولا هو بها جدير . ونشطت الرسائل ما بين الكوفة والمدينة ، وأعين الأمويين يقظى لا تمام ...



وفي هذا العالم المضطرب بشتى الأحداث ، المائج بتيارات متناقضة ،

المزدحم بحشد من طلاب الغناء وعشاق الأدب ، وآخر من طالبي الجهاد المنهيين لبذل الحياة رخيصة في سبيل ما يؤمنون انه حق .. في هذا العالم المضطرب المتناقض ، استقبلت « سكيئة » ربيعها الثالث عشر وتفتح صباها النضير عن آية من آيات الحسن والبهاء والجلال . وقد فرضت عليها الظروف أن تحيا بين التيارين المتجاذبين ، في مستهل هذا الصبا الغض . وبقدر ما رأى فيها أبوها مبعث راحته وأنسه ، رأت فيها أم القرى نموذجا فريدا رائعا لا عهد لها بمثله أناقة وظرفا وبهاء ! وأقبلت عليها فتيات مكة ، يرمقنها في اعجاب مشوب بشيء من الحسد ، ورحن يرصدن لغقاتها الساحرة ، وحركاتها الرشيقة الفاتنة ، وذلك النمط الخلاب الذي استحدثته في تنسيق شعرها

وفي هذا الموسم بالذات ، بدأت شخصيتها تظهر في المجتمع ، ونلفت اليها القلوب والأبصار . كانت مكة في موسم الحج ، تعتبر سوقا أدبية واجتماعية حافلة . فحين أقبل موسم الحج من عام ٦٠ هـ ، وسكيئة هناك ، شهد الموسم في دنيا النساء عجبا من العجب : ما من شابة حسناء الا حاولت أن تقلد « سكيئة » فيما ظنته سر فتنتها ، وان كانت الآراء قد اختلفت في تحديد هذا السر ، وذهبت فيه كل مذهب ، فمن قائل انه أنس المحضر وظرف الحديث وسرعة البديهة والذكاء اللامح ، وآخر يرجع به الى حسنها الفريد وأناقته الساحرة ، وثالث يرده الى ما حصف بها من عظمة الأبوة وجلال النسب وسنا النبوة ، ورابع يراه في هذا كله مجتمعا متكاملا ، وخامس يحسبه جاذبية خاصة ، ليست مما يحدد أو يفسر أو يضبط !

واذا كانت حسان قریش ، قد أعياهن أن يأخذن عنها نبل الملامح وجلال الطلعة ونور النبي ، فقد بقيت لهن بعد ذلك أناقتها يقلدنها حيثما اسنطعن ، وشاعت « الطرة السكيئية » فلم تبق واحدة منهن لم تنسق شعرها على النسق المستحدث الذي ابتدعته الهاشمية الحسناء ، وراح المجمع المكى يعرف في بناته أثر النموذج الفريد ، ويصغى الى ما يتناقله من أنباء

ظرفها ونوادير دعابتها الذكية المرحية

وخفقت قلوب الشباب الهاشمي والقرشي ، تسائل في لهفة : أيهم يسعده زمانه بأن تكون هذه الدرة الفريدة من نصيبه ؟ وبأيهم ترضى « سكيانة » زوجا ؟

وإذا كانت أمانيتهم جميعا قد تعلقت ببنت الحسين ، فإن واحدا منهم فقط ، هو الذي خطا خطوة حاسمة في سبيل الظفر بها ، ذلك هو ابن عمها « الحسن المثنى » (١) الذي يرشحه شرفه وبنوته للإمام « الحسن ابن علي » لمصاهرة عمه الحسين وكان الحسن المثنى وصي أبيه

لكنه لم يشأ - أو لعله لم يستطع - أن يسمى « سكيانة » حين تقدم الى عمه الحسين يطلب مصاهرته فرحب به العم وقال مجيبا : (٢) - اخترت لى ابنتى فاطمة ، فهى أكثر ابنتى شبيها بأبى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانها لذات دين وجمال ثم أردف بعد لحظة ، فيما تقول الرواية :

« وأما سكيانة ، فغالب عليها الاستغراق مع الله . فلا تصلح لرجل » وإذا صحت الرواية ، فإن عبارة الامام فى ابنته تلفت النظر ، فهذا الاستغراق مع الله قد يبدو مناقضا لما أشرنا اليه آنفا من مرح « سكيانة » وأنس محضرها ، وما ذاع من أناقتها وميلها الى الدعابة ، لولا أننا نعود فنذكر أنها اعتادت - منذ وعت - أن تلوذ بهذا المرح لتبدد بعض الغيوم التى كانت تخيم على البيت العلوى الكريم ، منذ مصرع الامام على ، وما تلاه من أحداث أليسة حمل الامام الحسين عبثها الباهظ . وقد بلغ من حرص « سكيانة » على اصطناع المرح ، ما استطاعت معه أن تطوى همومها فى أعماقها ، وأن تحتفظ بهذه الابتسامة الوضاعة يتألق بها وجهها الصبوح ، دون أن يلمحها هذا المرح ، الذى فرضه عليها دورها فى المعركة ، عما تنزع اليه بحكم ميراثها النبوى ونشأتها فى رحاب البيت

(١) نسب قريش : ٥١ - وأم الحسن على خولة بنت مطور اليلالية الفطمانية

(٢) الاغاي : ٥٩/١٢ . وفيه روايه أخرى ، كالتى فى « نسب قريش : ٥١ » ان الامام حيره بن فاطمه وسكيانة ، فكان هو الذى اختار فاطمة وانظر « مقتل الحسين : ٣٦٨ »

المحمدي ، من تعبد يصل أحيانا الى درجة الاستغراق مع الله ، والاندماج في ذلك الجو الروحي المسعد الذي كانت تجد فيه ملاذها عندما ينقل عليها دورها الصعب . فما كانت ظروف الحياة في بيتها تلك بالتي تعين على الابتهاج والمسرة ، فلا عجب اذا رأيناها تنتقل من حال الى حال فتلقى الدنيا بوجهها الضحوك وظرفها المرح ، ثم لا تكاد تخلو الى نفسها حتى تقبل على العبادة في خشوع واستغراق ، استجابة لما في طبيعتها المتدينة ، وميراثها من الآباء والأجداد ، ومتخففة من ثقل الدور الذي يفرض عليها ما لا تحتمله ظروف حياتها من تهلل واشراق

ونطيل الوقوف عمدا عند هذه النقطة بالذات ، لأنها تعيننا على فهم شخصية « سكينه » ولعلنا ما اهتمنا بمسيرة أحداث العصر ، في تتبعنا لمراحل حياة بنت الحسين ، الا لكي نلقى من هذه المسيرة ضوءا على ما يبدو لسوانا تناقضا في تلك الشخصية التي حيرت ككتاب السير : فالأخبار عنها تصورها أحيانا خلية البال ، معنية بأناقته ، مزهوة بملاحتها مندمجة في الحياة الاجتماعية ، ثم يقرءون مع ذلك وصف أبيها لها بأنها « يغلب عليها الاستغراق مع الله » (١) ويروون أخبارا أخرى تؤكد انها كانت مضرب المثل في العفة والتقوى والإيمان

وكان من السهل أن نفترض ، أن « سكينه » عاشت عهديين مختلفين ، كانت في أولهما مستغرقة في الله مندمجة في حياة التعبد ، ثم تغيرت من بعد ذلك ، فانصرفت الى حياة المجتمع واندمجت فيه

وكان من اليسير كذلك ، أن نحدد المرحلة الأولى ، بالفترة التي عاشتها في كنف أبيها الامام ، وأن نجعل مقتله - رضى الله عنه - هو الحد الفاصل بين العهديين

أجل كان من اليسير أن نفترض هذا ، فيسهل علينا به أن نفسر تناقض الأخبار عنها بين الزهد المسرف والدعابة اللافتة ، بين قول أبيها رضى الله عنه « انها يغلب عليها الاستغراق في الله » وبين هذه « الطرة السكينية » التي فتنت عصرها .. بين المشهور من تقواها وعفتها وإيمانها ، وبين

(١) السيد عبد الرزاق الموسوي : مقتل الحسين : ٣٦٨

الذى ذاع من ظهورها في المجتمع الأدبي ، واحتفائها بالمعنيين والشعراء ...
 لكننا يحول بيننا وبين الاطمئنان الى هذا الافتراض ، ما أجمع عليه
 الذين كتبوا عنها ، من كون أبيها رضى الله عنه كان يأنس اليها ويجب
 مجلسها ، ويستطيب محضرها ، منذ كانت طفلة صغيرة ، وقد سجلت
 الأخبار ، أنها سئلت لم تمزح ، وأختها فاطمة قلما تفعل ، فكان جوابها
 ما سمعناه من أن أختها سميت باسم جدتها الزهراء ..

ثم ان هذه المقارنة بين الأختين — اذا صح خبرها — قد كانت وهما
 بعد في بيت واحد ، قبل أن تمضى الحياة بكل منهما في سبيل . وفاطمة قد
 تزوجت في حياة أبيها الحسين ، واذن فقد كان ميل سكينه الى المرح
 مبكرا ، وقبل أن تفجع — ويفجع العالم الاسلامي — بمقتل أبيها في
 كربلاء ، ولم يمنع هذا المرح أباهما رضى الله عنه ، بأن يصفها بالاستغراق
 في الله !

من الممكن أن يقال ، أن سكينه كانت أكثر استغراقا في العبادة وأقل
 ظهورا في المجتمع ، أيام كانت تعيش في كنف أبيها الامام ، كما يمكن أن
 يقال كذلك ، ان الأحداث التي ألمت بها — بعد مقتل أبيها — قد وجهتها
 نحو الحياة الاجتماعية بضجيجها اللائع ، على ما سوف نرى في الدور
 الثاني من حياتها . يقال هذا وذلك ، فيقبل في طمأنينة ، فمما لا ريب فيه
 أن مذبحة كربلاء ، قد كانت ذات أثر بعيد حاسم ، في حياة الشريفة
 الهاشمية الحسنة ، بل لا نغلو اذا قلنا انها الحد الفاصل بين طورين
 متميزين ، في حياتها الحافلة . لكن الذى لا نرتاب فيه كذلك ، أن بوادر
 هذا الازدواج في الشخصية ، قد لاحت منذ صباها الباكر . وأسميه
 ازدواجا في الشخصية ، دون أن أعنى به — بحال ما — ذلك المدلول
 الاصطلاحي المستحدث للازدواج ، عند النفسيين ، وانما أقصى ما أريده
 به ، هو ذلك الجمع بين المرح والدعابة والمزاح ، وبين التقوى والتعبد
 والزهد أو ما يشبه الزهد !

هذا الازدواج — واضطر الى استعماله على كره منى — هو الطابع

المميز لشخصية سكينه . ظهرت بوادره فى العهد الأول ، عندما كانت تلازم أباهما وتعيش فى كنفه ، ثم ازداد على الأيام وضوحا ، وان اتخذ سورة أخرى ، نراها بعد حين

ولقد زفت « فاطمة » الى الحسن المثنى فى حياة أبيها الحسين ، وقيل فيها قيل يومئذ : ان امرأة مردودتها سكينه ، لمنقطعة القرين فى الحسن (١) وبقيت سكينه فى بيت الحسين ، وقد أرضاها أن يستبقها أبوها رضى الله عنه الى جانبه ، فما كانت لتؤثر على مكانها هناك أى مكان سواه ... وتناقلت بيوتات مكة كلمة أييها « فلا تصلح لرجل » فتناصرت عنها أطماع الشباب ورأوها فوق منالهم ، وطويت قلوب كثير منهم على يأس ...

وأغلب الظن أن « مصعب بن الزبير » كان من بين الذين صكت الكلمة مسمعهم ، فلقد حدثته أمانيه (٢) أن يتزوج من سيدة نساء عصرها جمالا وظرفا وحسن خلق وعزة نسب وشرف منبت ، وكان يرى نفسه أهلا لها : أبوه الزبير بن العوام بن خويلد صاحب رسول الله وصهر أبى بكر الصديق ، وأمه الرباب بنت أنيف بن عبيد الكلبي ، وجدته لأبيه ، صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعمته أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، جدة سكينه لأُمها

وكان لمصعب من شرفه الخاص ، ما يظاهر هذا النسب العريق ويكافئه ، فهو الذى يتناقل المجتمع القرشى أنباء جوده وشجاعته ومروءته ، حتى لقد شاعت فيه القولة المشهورة : « لو أن مصعب بن الزبير وجد أن الماء ينقص مروءته لما شربه » وهو الذى قال فيه خصمه عبد الملك بن مروان : « متى تغذو قريش مثلك ؟ »

وكان الى جانب ذلك كله جميلا فى الرجال ، حتى ليقول « جميل بن معمر » : ما رأيت مصعبا يختال بالبلاط الا غرت على « بشينة » وبينهما

(١) نسب قريش (٥١) ومقاتل الطالبين (١٨٠) والاغانى ٢٠٤/١٨
(٢) ابن قتيبة : عيون الاخبار ٢٥٨/١ ط دار الكتب المصرية

ثلاثة أيام ! (١)

وقد حدث « مصعب » برغبته تلك في الزواج من سكيينة ، ثلاثة من أصحابه ، هم أخوه عروة بن الزبير ، وعبدالله بن عمر ، وعبد الملك بن مروان (٢) — ولم تكن المعركة قد انتقلت اليه والى آل الزبير — على أنه لم يبادر بخطبة سكيينة ، ربما لأنه لم ير الطرف مناسباً وأبوها الحسين مشغول بعمومه الكبار ، وربما لأنها كانت لا تزال بعد صغيرة فلا بأس على مصعب في أن يتمهل انتظاراً لفرصة مواتية ، وربما لأنه كان لا يرى في غيره من شباب قريش كفوًا لبنت الحسين !

حتى ذاع نبأ خطبة الحسن المثنى لاحدى ابنتى الحسين ، ثم زواجه من فاطمة دون سكيينة التى رأى أبوها انها باستغراقها مع الله لا تصلح لرجل ، فكف مصعب عن التعلق بأمنيته في الزواج منها ، وراح يغالب رغبته فيها ويأخذ قلبه بالانصراف عنها مخافة أن يرده الحسين خائباً فلا يستطيع مصعب أن يلتقى الناس وقد كذب كلمتهم فيه : لو انه وجد الماء ينقص مروءته لما شربه !

فلتكن سكيينة من تكون ! لتكن الماء الذى لا تقوم حياته بدونه ، فانه ليؤثر أن يهلك ظمأً على أن يطلب هذا الماء مع احتمال رده عنه ! والا لما كان مصعب بن الزبير ، ذاك الذى ضربت به قريش المثل في المروءة وعزة النفس !

ترى هل شعرت الغادة الهاشمية بذلك الصراع الذى احتدم في نفس الفارس النبيل بين عاطفته ومروءته ، بين وجدانه وعقله ؟!

مثل « مصعب » من لا يدع هواه المكبوت يغلبه أو تفلت منه بوادر تشي به وتتم عليه . ولعل سكيينة لو درت بما يطوى لما ملكت له أكثر من الرثاء والعطف ، فقد كانت في شغل بدورها المزدوج ، عن شجون العواطف

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار — ٢١/٤
والبلاط موضع بالمدينة مبلط بالحجارة بين المسجد النبوى وسوق المدينة
(٢) عيون الاخبار : ٢٥٨/١

وشئون الخطبة والزواج ، فهل يرضى مصعب أن يكون موضع رثاء من فتاة حسناء ؟

الموت أهون من هذا !

وثمة سؤال آخر يعرض : هل لقتت سكينه في ذلك الموسم من مواسم الحج ، أعنى سنة ٦٥ هـ ، عمر بن أبى ربيعة شاعر الجمل ؟ من المحقق أن عمر كان هناك ، يملأ مكة بغزلياته وأحاديث مغامراته الموسمية ، حيث اعتاد - فيما قالوا - أن يتعقب من يفد على مكة من ربات الجمل ، ليتغزل بأسمائهن فى قصائد يتناقلها الرواة ويسرى بها الركبان عبر البيد والقفار ، ويتغنى بها قيان المدينة ومغناها الكبار : غزاة الميلاء ، والغريص ، وابن سريج ، ومالك ، ومعبد

على أن الموسم انقض ، دون أن يتعرض « عمر » لاسم سكينه ، وهو الذى لم يدع ذات جمال ، الا حياها باختيار اسمها لاحدى غزلياته . أجم لسانه فلم يقل بيتا واحدا فيه اسم « سكينه » زينة الموسم وأروع جميلات ، ملاحه ونضرة وأناقه وسحرا ؟

وماذا يجديه أن يكون تغنى بأسماء زينب وهند ورملة والثريا وفاطمة و ... و ... وترك اسم « سكينه » الذى صار بصاحبته أعذب الأسماء ؟ وما كان صمته عن جحود أو تجاهل ، انما أجم لسانه فرط تهيبه لمكانها ، وهو يعلم ما كان يشغل أهلها وأهل مكة جميعا من تهيب « الامام الحسين » للسفر الى العراق ، بعد أن جاءته رسل الكوفة ببيعة عشرات ألوف من أهلها (١)

كلا ، لا سبيل لعمر الى التغزل بأعذب اسم لأجمل مسماة وأقول اسم « سكينه » لأنى مطمئنة الى أن عمر فى غزلياته ، لم يكن يتحدث عن واقع بينه وبين الشريقات القرشيات ، وانما كان يختار أسماء الجميلات منهن لما ينظم من غزليات ، على ما سوف نوضحه بزيادة تفصيل وبيان ، فى الفصل الثالث من هذا الكتاب

(١) تاريخ الطبرى : حوادث سنة ٦٥ هـ و « مقتل الحسين : ١٤٧ »

مذبحة كربلاء

خرجت مكة كلها تشيع سبط الرسول ، وقد خرج منها بأهل بيته جميعا غداة يوم من أخريات ذى الحجة سنة ٦٠ هـ يريد الكوفة ، بعد أن ألحت عليه شيعته هناك ، بأن يقدم اليهم ليجاهد بهم ضد الطغيان وقيل ان الذين أتته بيعتهم من العراق أربعون ألف رجل ! ولو استطاعت « مكة » لحالت دون خروج أهل البيت النبوي منها ، ولكن الامام قد وعد ، وعزم ، وقرر ، فما تستطيع قوة في الأرض أن تصده عن النضال في سبيل الحق ، وما يستطيع أى انسان ، أن يغريه بإثار السلامة والعافية ! (١)

ولقد حاول نفر من خاصة قرابته أن يحولوا دون استصحابه لأهل بيته في رحلته تلك : حاول ذلك ، أخوه محمد بن الحنفية ، وابن عم أبيه عبدالله بن عباس ، وعبدالله المخزومي ، وغيرهم .. (٢) ولكن ماذا تجدى المحاولة أمام من هانت عليه الدنيا وصمم على أن يبيعها بالآخرة ؟ وقيل فيما قيل : « ان أهل الصراق هم الذين قتلوا أباه وأخرجوا أخاه » وذكروه برأى الامام الشهيد كرم الله وجهه فيهم ، ولكنه أبى الا أن يمضى وهو يقول لناصحيه :

« ان من هوان الدنيا على الله ، أن رأس يحيى بن زكريا أهدى الى بغى من بغايا بنى اسرائيل » !
أو يقول :

« انى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا ولا ظالما ، وانما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدى : أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، فمن قبلنى بقبول الحق فالله أولى بالحق ، ومن رد على هذا ، أصبر حتى يقضى الله بينى وبين القوم وهو خير الحاكمين »

وكان وداع ...

مضى فطاف بالبيت العتيق ، وسعى بين الصفا والمروة ، وقضى عمرته (١) .
كان وداع ضجت مشارف مكة من عنفه وقسوته ، فما هان على أهلها
أن يحرموا من طلعة الحسين ، وفيها نور النبوة . ولا هان على مكة أن
تسمى وقد ارتحل عنها خير بيت وأعز رهط :

بيت النبي ورهط الامام ...

ومضى الركب الحسيني في طريقه الى ما كتب له في الغيب المضمّر
وآب المودعون الى البلد الحرام ، وما فيهم من لا يجد في قلبه
مس الحزن ولذع الفراق ، وقلقا مبهما لم يلبث أن خالطه شيء من الخوف ،
منذ جاوز الركب الحمى الآمن وودعوا جيرة الحرم .
وكانوا جميعا يدركون أن لهذا الرحيل ما بعده ، وان اختلفت بهم
الظنون فيما سوف يكون

وتعلل أكثرهم بالأمل في أن « يزيد » لن يجروا على أن يبوء بدم
الحسين ، لا تغفوا أو تأثما أو تحرجا ، ولكن خوفا من أن يفسد عليه
الأمر كله بمقتل الحسين ، ويبوء بلعنة المسلمين حيثما كانوا ...
ولكن قلة - منها عبد الله بن الزبير (٢) - كانت على شبه يقين من أن
دور يزيد في الصراع العتيدي بين بني عبد شمس وبني هاشم قد حان ،
وأنة في طيش شبابه ورعونة فتوته وجبروت سلطنته ، لن يدع الحسين
فعلت سائلا ، وليس ليزيد حلم أبيه معاوية ، ودهاء رأيه ونضج خبرته

تري هل لمحت « سكيّة » من هودجها ، وهى تتلفت نحو أم القرى
لتزود منها بنظرة طويلة قبل الفراق ، هل لمحت بين الجموع التى احتشدت
لوداع الركب ، مصعب بن الزبير يرسل عينيه اثر الراحلين ، فى تجمل
واجهم ؟

وهل استطاعت بأوثتها الذكية اللماحة ، أن تدرك وراء تجمله ما يطوى

(١) تاريخ الطبرى : ٢١٧/٦

(٢) تاريخ الطبرى : ٢١٧/٦ و « مقتل الحسين : ١٧٤ »

عليه جوانحه من سر لا يذاع ؟

وهل تراها لمحت بينهم كذلك ، عمر بن أبي ربيعة يشيع حملتها وقد
بان عليه اثر الخيبة والغيب ، وعز عليه أن تمضي ربة الجمال والأناقة ، ولم
يجى اسمها تحية اعجاب وتمجيد واكبار ؟

أغلب الظن أنها كانت في شغل عن هذا كما بما يتوزع قلبها وبألها من
شجن الفراق لأُم القرى ، ومن تلك السوم الكبار التي استغرقت الركب
كله اذ يغذ السب عبر البسار ، الى مصيره المحتوم ، المقدر له عند
عالم الغيب .



ونطوى الأيام على عجل ، لنرى الركب وقد دنا من مشارف العراق ،
وآن للراجلين المجتهدين أن يخطوا الرحال بعد تلك المرحلة الشاقة المجهدة
لكن أحدا منهم لم يهش لقرب المناخ ...

وتشاقلت رواحلهم ، وهى تقطع المرحلة الأخيرة الباقية ، وقد خرس
الحادى منذ بلغ القوم فى الطريق - عند زرود أميال من القادسية - نبأ
مصرع الشهيد ، مسلم بن عقيل بن أبى طالب ، ابن عم الامام الحسين ،
ورسوله الى أهل الكوفة (١)

وغشيتهم غاشية من حزن ثقيل ممض ، حين لاحت لهم مشارف العراق
من بعيد ، فذكرتهم بشهيد الأمس الذى لم يجف دمه بعد ، وبشهاد
قبله ، ثوى هنالك منذ عشرين عاما ...

ورددوا مرثية الحسين فى ابن عمه عقيل ، حين أتاه نبأ مصرعه المثير :

فان تكن الدنيا تعد نفيسة

فان ثواب الله أعلى وأنبل

وان تكن الأبدان للموت أنشئت

فقتل امرئ بالسيف فى الله افضل

(١) تاريخ الطبرى : ٢٢٥/٦
وزرود : فى طريق الحاج من الكوفة ، أنظرها فى (معجم البلدان لياقوت)

وان تكن الأرزاق قسماً مقدراً
نقطة حرص المرء في السعى أجمل !
وان تكن الأموال للترك جمعها
فما بال متروك، به المرء يبخل؟ (١)

واذ هم في طريقهم — على ثلاثة أميال من القادسية — لاح لهم غبار
مثار ، ما لبث أن تكشف عن جيش جرار ، عرفوا فيه جيش عبد الله بن
زياد — والى الكوفة ليزيد — وعلى رأسه الحر بن يزيد التميمي (٢)
وعدل « الحسين » بصحبه عن طريق الجيش ، فاعترضه الحر بن يزيد ،
وما زال الحسين يسير بأهله وأصحابه يمينا ويسارا ، والحر يعترضهم مرة
ويخلى بينهم وبين الطريق أخرى ، حتى بلغ بهم كربلاء ، فتركهم ينيخون
هناك ، في اليوم الثاني من مستهل العام الجديد
ورجع الحسين بصره في الجيش الرابض تجاهه ، فاذا الجند جميعا من
أهل العراق !

وكانت عدتهم — أول الأمر — ألف مقاتل ، والركب الحسيني لا يتجاوز
عنده بضعة وسبعين فارسا ، من آل البيت وأصحاب الحسين !

وعرف « الحسين » مصيره ، قبل أن يقول له الحر بن يزيد وهو
يسايره :

— انى لأشهد لئن قاتلت لتقتلن ، ولئن قوتلت لتهلكن .
وأجاب الحسين الامام :

— أفيالموت تخوفنى ؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلونى ؟ ما أدري
ما أقول لك ، ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه وقد لقيه وهو
يريد نصره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله : أين تذهب فانك
مقتول ؟

(١) مقتل الحسين : ١٩٢
(٢) تاريخ الطبرى : ٢٢٠/٦

فقال :

سأَمْضِي وما بالموت عار على الفتى
اذ ما نوى حقا وجاهد مسلما (١)

وطاف بهم في ليلتهم الأولى هناك ، طائف منذر بما يطوى الغد القريب
وفي مخيم النساء ، كانت هناك السيدة زينب أخت الحسين ، وزوجه
الرباب بنت امرئ القيس ، وبتاه سكينه وفاطمة ، وبقية العقائل
الكريمات من آل هاشم !

وطال عليهن الليل وهن يتذاكرن ما كان ، ويتوقعن ما سيكون :
وتركتهن السيدة زينب الى خيمة أخيها ، حيث رآته هناك مكبا على
سيفه يصلحه ، وهو يرتجز :

يا دهر أف لك من خليل كم لك بالاشراق والأصيل
من طائب وصاحب قتيل والدهر لا يقنع بالبدل
وكل حي سالك السبيل ما أقرب الوعد من الرحيل
وانما الأمر الى الجليل (٢)

صاحت العقيلة :

— واثكلاه .. ينعى الحسين نفسه ! ليت الموت أعدمني الحياة . ماتت.
أمى فاطمة ، وأبى على ، وأخى الحسن ، ولم يبق غيرك يا خليفة الماضين
وئمال الباقيين ..

وفي رواية أنها سمعته رضى الله عنه يقول لها : انى رأيت رسول الله
صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال لى : انك تروح الينا
فصاحت : يا ويلتنا ..

قال : ليس لك الويل يا أخية . اسكتى رحمك الرحمن (٣)

(١) تاريخ الطبرى : ٢٢٩/٦ ومقتل الحسين : ١٧٨
(٢) تاريخ الطبرى : ٢٢٩/٦ ومقاتل الطالبين : ١١٣ ومقتل الحسين : ٢٣٩
(٣) تاريخ الطبرى : ٢٣٧/٦ ومقاتل الطالبين : ١١٣

وبلغت صيحتها — فى سكون ذلك الليل الموحش — مسامع النساء
فى مخيمهن ، فهرعن الى « الحسين » والكرب يعصف بهن عصفا ..
ونظر الحسين اليهن مليا ، ثم قال :

— يا أختاه ، يا أم كلثوم ، وأنت يا زينب ، وأنت يا سكينه وأنت
يا فاطمة ، وأنت يا رباب ، اذا أنا قتلت فلا تشق احداكن على جيا ،
ولا تخمش وجهها ، ولا تقلن هجرا ...
وأطرقن جميعا واجبات ، وخيم على المكان سكون ثقيل راكد ، ما لبث
أن مزقه نشيج مؤلم :

تلك كانت « سكينه » تبكى !
هذه التى أخذت نفسها منذ كانت ، أن تؤنس أباهها كلما ثقل عليه
الهم ، وأن تبدد بسنا ابتسامتها المشرقة ، بعض ما يغشى الأفق حوله من
ظلال ربداء ..

وأقبل عليها أبوها فى حنو ، وفى عينيه نظرة حزن وعتاب : كيف هان
على سكينه أن توجع قلبه ببكائها ، وهى التى كان يجدها موضع أنسه
كلما ألم حادث أو اشتد كرب ؟

وسألها ملاطفا : أفلا يهون عليها الأمر أن أباهها يدفع حياته ، دفاعا عن
حق ودفعاً لباطل ، وانه ملاق غدا ، جده الرسول ، وأمه الزهراء ، وأباه
الامام ، وأخاه الحسن ، وعمه حمزة ، وابن عمه مسلم بن عقيل ، وانها
لا بد لاحقة بهم فى غد قريب أو بعيد ؟

لكنها لم تكف عن البكاء ، وكأنما كانت تبكى هموما طالما طوتها ،
وتدرف دما آده الاختباس الطويل

ورنا اليها أبوها الحبيب طويلا ، ثم قال فى شجاعة المستسلم لمضاء الله
وقدره :

— سيطول بعدى عنك يا سكينه (١) ، فهلا ادخرت البكاء لغد ،
وما غد ببعيد ؟

(١) السيد توفيق الفيكى : السيدة سكينه : ص ١٢٣

ثم أوصى أمها « الرباب » أن ترعاها ، وقام يصلى ...
ولف الكون كله صمت خاشع ، لم يعد يسمع فيه سوى صوت
« الحسين » فى تهجده ، يتلو قرآن الفجر الذى بدأ نوره الشاحب ينبثق
من خلال الظلمة ، معلنا عن مولد يوم جديد ، هو الثالث من محرم
سنة ٦١ هـ

وأصبحوا فإذا الأجناد قد تدفقت من الكوفة ، حتى بلغت عدتهم
أربعة آلاف مقاتل - عليهم «عمر بن سعد بن أبى وقاص» (١) - ثم يلبثوا
أن زادوا حتى غدوا - فى بعض الروايات - عشرين ألفا !
ولم يبدأ قتال ، وانما أحاطت الآلاف بالحسين وصحبه ، معترضة
سبيلهم الى الماء !

وتتابعت الأحداث سراعا فى عنف شرس ، فما استكمل الأسبوع
دورته ، الا والساحة المشئومة قد امتلأت بجثث الشهداء من آل البيت ،
غارقة فى بحار من دماء ..

وأمسك هنا عن وصف المذبحة المروعة ، فما من كتاب عن تأريخ تلك
الفترة لم يصفها ، وأنا بعد لا أجد لى طاقة على احتمال الحديث عنها ،
بعد أن فعلت ذلك مرة ، فى كتابى عن عقيلة بنى هاشم « بطلة
كربلاء » ! (١)

وانما أمضى مسرعة لأقف الى جانب سكيئة وقد اقتحم العسكر
فسطاطها وأخرجت لترى هنالك أشلاء مختلطة مبعثرة ، لأبيها الحسين
الامام ، وأعمامها : عبدالله وجعفر وعثمان والعباس ومحمد وأبى بكر ،
بنى على بن أبى طالب

وأخيها الشقيق عبدالله بن الحسين
وأخويها لأبيها ، على الأكبر وجعفر
وأولاد عمها : أبى بكر وعبدالله والقاسم ، بنى الحسن بن على

(٢) تاريخ الطبرى : ٢٣٤/٦
(٢) ط دار الهلال بالقاهرة ، ودار الاندلس ببيروت

وابن عمتها زينب «عون الأكبر بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب» (١)
وأخيه لأبيه : محمد بن عبد الله بن جعفر
وبني العم عقيل بن أبي طالب : جعفر ، وعبد الرحمن ، وعبد الله
هكذا ، مرة واحدة ، وفي يوم واحد ، هو التاسع من شهر المحرم
سنة ٦١ هـ (٢)

وفي ذهول وقفت «سكينة» تطل على البقايا والأشلاء ...
حتى فرغ القوم من جز الرؤوس وجاءوا يسوقونها مع النساء الى
الكوفة

هناك ألقت بنفسها على ما بقي من جسد أبيها - وفيه ثلاث وثلاثون
طعنة ، وأربع وثلاثون ضربة - واعتنقته متشبثة به ، فخيّل اليها انها
نسمع صوتا يخرج من منجره الدامي : (٣)

شيعتي ما ان شربتم عذب ماء فاذكروني
أو سمعتم بغريب أو شهيد فاندبوني
ولكنهم انتزعوها من جسد أبيها في قسوة ، وألقوها بركب السبايا !
وان كانت احداهن لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه ، فيذهب به
منها ! (٤)

وسيق الركب التعس ، نحو الكوفة
وعند أطراف الساحة ، تمهل الركب برهة ريشا ألقت السبايا نظرة
أخيرة على البقايا

وطيف برأس الحسين في أحياء الكوفة على مرأى من السبايا التواكل ..
أين الأشياع والأنصار ؟

(١) ذكر في الطبري (٢٧٠/٦) ان عون بن عبد الله ، وأمه جمانة بنت المسيب كان من بني
قتلى كربلاء ، وذلك هو عون الأصغر المقتول يوم الحرة . انظر مقاتل الطالبين ص ١٢١ - ١٢٤
(٢) أنظر « أسماء من قتلوا من بني هاشم مع الحسن عليه السلام ، وعدد من قتل في كل
قبيلة » في (تاريخ الطبري : ٢٦٩/٦)
وفي (مقاتل الطالبين ٩١)
(٣) السيد الفيكي : ١٢٤ ومقل الحسين : ٣٦٨
(٤) تاريخ الطبري ٢٦٠/٦

أين الألوف الأربعون الذين ألحوا في دعوته ليناضلوا معه في سبيل الحق ، فجاءهم ملييا ، وترك مأمنه الى جوار البيت العتيق ؟
 ألا فليملئوا عيونهم من رأس سيد الشهداء ، وليروا نساءه وبناته سبايا !

وليملئوا أسماعهم بصوت ابنته سكيئة اذ تقف في الركب التعس حاسرة الوجه ، مهیضة الجناح تقول : (١)

ان الحسين غداة الطف يرشقه

ريب المنون فما ان يخطيء الحلقه

بكف شر عباد الله كلهم

نسل البغايا وجيش المرق الفسقه

وصوت أمها الأرملة الشكلى اذ تقول : (٢)

ان الذى كان نورا يستضاء به

بكرىلاء قتييل غير مدفون

سبط النبى ، جزاك الله صالحه

عنا وجنبت خسران الموازين

قد كنت لى جبلا صعبا ألوذ به

وكنت تصحبنا بالرحم والدين

من لليتامى ومن للسائلين ومن

يغنى ويأوى اليه كل مسكين

وسيقت العقائل الهاشميات الى قصر الامارة ، فى موكب نعس لم تشهد الدنيا له مثيلا من قبل ولا من بعد !

بنات النبى سبايا ، قد حملن على أقتاب الجمال بغير وطاء ، ممزقات الجيوب حواسر الوجوه حافيات الأقدام ، يتقدمهن حملة الرعوس على أسنة الرماح !

(١) السيد توفيق الفيكى : السيدة سكيئة بنت الحسين : ١٢٥

(٢) السيد عبد الرزاق الموسوى : مقتل الحسين : ٣٩٤

رءوس الحسين وثمانية وسبعين من اخوته وبنيه وبنى أخيه وأبناء
عمومته وأصحابه ! (١)
وتركت الجثث حيث هى على الساحة المشنومة ، ملقاة بالعراء ، تسفى
عليها الريح ، وتحوم عليها جوارح الطير وسباع الجو ، ويرعى فيها وحش
الفلاة :

أبك حسينا ليوم مصرعه بالطف بين الكتائب الخرس
أضحت بنات النبي اذ قتلوا فى مأتم والسباع فى عرس (٢)
وسمعت سكيئة أمها الرباب تقول : (٣)
واحسينا ، فلا نسيت حسينا
أقصده أسنة الأعداء
غادروه بكرىلاء صريعا
لا سقى الله جانبى كرىلاء !

ثم أمر « ابن زياد » بالموكب المثير ، فسيق الى دمشق ، كى تقرر عينا
« يزيد » بمشهدته ومرآه
وعرض الموكب على أهل دمشق ، قبل أن يساق الى حضرة يزيد ،
ليضع الرأس بين يديه ، ويتح له أن ينكت ثانيا الحسين بقضيب كان فى
يمينه وهو ينشد متمثلا :

نفلق هاماً من رجال أعزة
علينا وهم كانوا أعق وأظلماً (٤)
ثم يقول لمن حوله :

« ان هذا وايانا لكما قال الحصين بن الحمام المرى :

(١) تاريخ الطبرى : ٢٦١/٦ ومقاتل الطالبين : ٧٨ وما بعدها
(٢) عيون الانباء لابن قتيبة : ٢١٢/٢
(٣) الامانى : ١٥٨/١٤ سأسى - ومقتل الحسين : ٣٩٣
(٤) تاريخ الطبرى : ٢٧٦/٦ - ومقاتل الطالبين : ١٢١ - وفى (نسب قريش : ١٢٨)
ان الذى تمثل بهذا البيت ، عبيد الله بن زياد

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت

فواضب في أيماننا تقطر الدما » (١)

وفي رواية انه تمثل كذلك بقول عبد الله بن الزبير في أحد :

ليت أشياخي ببدر شهدوا

جزع الخزرج من وقع الأسل

قد قتلنا القرم من أشياخهم

وعدلنا ميل بدر فاعتدل (٢)

وبلغ المشهد ذروته ، حين أخذ أحد أتباع يزيد يحدق في بنت الحسين ،
ويسأل سيده أن يهبها له أمة جارية !

« لقد جئتم شيئا اذا . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض
وتخر الجبال هذا ! »

وقام آخر من أهل الشام فقال : « ان نساءهم لنا حلال » . فقال
على بن الحسين :

« كذبت ، ما ذلك لك الا أن تخرج من ملتنا » (٣)

ثم كانت نهاية المطاف في مدينة جد الحسين ، محمد عليه الصلاة
والسلام ...

وكانت قد تلقت خبرا بقدوم « على بن الحسين » مع عماته وأخواته .
حملة اليها رسول من « على » الذي نجا من المذبحة ، وما كان لينجو لولا
أن حمته عمته زينب ، وكان في حضنها مريضا ...

وضجت المدينة بالبكاء ، وهي تستقبل بقايا الركب الحسيني الذي
ودعته الحجاز منذ أقل من شهر ! !

(١) تاريخ الطبري : ٢٧٦/٦ والكامل لابن الاثير : ٣٧/٤
(٢) مقاتل الطالبين : ١١٩ وشذرات الذهب ٩١/١ والابيات في (السيرة لابن هشام :
١١٤/٣) حلى . وضيف رواية اليها بيتا ليزيد
لاهلوا واستهلوا فرحا ثم قالوا مايزيد لاثل - وانظر مقتل الحسين : ٤٢٨
(٣) تاريخ الطبري : ٢٦٣/٦ - ونسب قريش : ٥٨
والدى في (مقاتل الطالبين ص ١٢٠) أن السيدة زينب بنت على ، هي التي قالت ذلك

وبرزت النساء — كل النساء — صارخات باكيات ، وخرجت عقيلات
بنى هاشم من خدورهن حاسرات الوجوه ، يندبن فى لوعة : واحسيناه ،
واحسيناه ..

وخرجت « زينب بنت عقيل بن أبى طالب » — أخت هانىء — على
الناس ناشرة شعرها وهى تبكى قائلة :

ماذا تقولون ان قال النبى لكم
ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى

منهم أسارى ومنهم خضبوا بدم
ما كان هذا جزائى اذ نصحت لكم

أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحى (١)

فما سمعها أحد الا وبكى ...

ولم تبق دار فى المدينة الا وبها مآتم ..

ولبثت مناحة الشهداء هنالك فائمة أياما وليالى ، حتى جفت المآقى
من طول ما سكبت من دمع ، وحتى صحت الحلق من طول ما أجهدتها
النواح ...

(١) هذه رواية الطبرى للآيات وذكر أنها لامرأة من بنى عبد المطلب (٢٢١/٦) ورواه
الزبيرى فى (نسب قريش : ٥٨) وابن قتيبة فى (ميون الانباء : ٢١٢/٢) مع خلاف يسير فى
السطر الاول من البيت الثانى ، ومع ذكر اسم القائلة : زينب بنت عقيل
وانظر « مقتل الحسين : ٤٠٧ »

بعد العاصفة

وتضطرب الأخبار عن « سكينه » فترة ، فيقال في رواية انها صحبت منها « زينب » في خروجها الى مصر ، حين أدرك « يزيد » خطر مقامها لمدينة ، فأمر واليه بها أن يفرق بينها وبين الناس حتى لا تكون ثورة (١) وإذا صحت هذه الرواية ، فلعل سكينه قد عادت الى الحجاز بعد وفاة منها زينب ، في شهر رجب من عام ٦٢ هـ

وفي المدينة ، أقامت مع أمها الرباب ، التي خطبت بعد فترة الحداد ، لبثت أن تستبدل بالحسين زوجها وبرسول الله صهرا ، وقالت : ما كنت اتخذ حما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم :
والله لا أبتغي صهرا بصهركم

حتى أغيب بين الرمل والطين (٢)
على أن الرباب ، ما لبثت أن ماتت بعد عام واحد ، حزنا عليه ، وعلى لدها عبدالله (٣)
وأقامت « سكينه » بعدها في كنف أخيها السجاد ، زين العابدين ، الى بن الحسين ..

وهناك في المدينة ، عادت أنظار بني هاشم فالتفتت الى الشريفة حسناء من جديد ، وقد ثقل الحزن عليها ولما تزل فتاة في مستهل الشباب عز الصبا ..

وأحاط بها قومها يلاحون عليها في الزواج ، ابقاء على سلالة الحسين نقية الطاهرة التي لم يبق منها — بعد مذبحه كربلاء — غيرها ، وأختها

(١) العبدى النساء : السيدة زينب وأخبار الزينبات : ١٨ — وأنظر معه الفصل الخاص به الرحلة الى مصر ، في كتابنا « بطلة كربلاء »
(٢) الأغاني : ١٥٨/١٤ ساجي
(٣) تاريخ ابن الأثير : ٧٣/٤

فاطمة ، وأخيها علي زين العابدين
وكانت الأحداث العنيفة التي مرت بها ، قد غيرت من حالها ، فلم تعد
تنسب البقاء في بيت أبيها بعد أن غاب عنه من كانت ترى حياتها لا تدور
إلا في فلكه

ولعلها استجابت وقتئذ لرغبة آلهها ، ورضيت بالزواج ، ولما يزل الجرح
في قلبها حيا ينزف دما ..
وهنا تبدأ مرحلة جديدة من حياتها ، تكاد الحقيقة تغيب فيها وسط
حشد من متناقض الأخبار وشتى الروايات ..

أما أختها « فاطمة » فاستقرت بها الحياة في بيت زوجها الحسن المثنى ،
ابن عمها الحسن رضى الله عنه . فلما حضرت زوجها الوفاة قال لها : « انك
يا فاطمة امرأة مرغوب فيك ، فكأنى بعبد الله بن عمرو بن عثمان اذا خرج
بجنازتي قد جاء على فرس مرجلا جمته لابسا حلته ، يخطبك ، فانكحى
من شئت سواه ، فانى لا أدع من الدنيا ورائى همًا غيرك . » وصدق
حدسه .. تزوجها عبدالله بن عمرو بعد تمنع منها وابعاء ، فولدت له محمدا
(الديباج) والقاسم ورقية بنى عبدالله بن عمرو ، وكانت ولدت للحسن
ابنه عبد الله الذى كان يقول : « ما أبغضت أحدا بغضى عبدالله بن عمرو ،
وما أحببت حب ابنه محمد الديباج » (١)

الفصل الثاني

في بيت الزوجية

- مثل من مروياتهم
- مع عبد الله بن الحسن
- مع مصعب بن الزبير
- مع ابراهيم بن عبد الرحمن
- مع الاصبع المرواني
- مع عبد الله بن عثمان الخزامي
- مع زيد بن عمر العثماني

مثل من مروياتهم

وحين نعرض لسير الحياة بسكينة في هذه المرحلة ، نضع أمامنا ذلك الحشد من أخبار زيجاتها التي بلغت في بعض الروايات ست مرات ، وتضاءلت في روايات أخرى فلم تتجاوز الواحدة أو اثنتين ! نقل السيد توفيق الفكيكي عن السيد عبد الرزاق الموسوي في كتاب له عن السيدة سكينة ما نصه :

« وهناك من المؤرخين من يحكى تزويج السيدة سكينة من ابن عمها عبد الله الأكبر ابن الامام الحسن المقتول في الطف مبارزة .. وأما غيره من الأزواج ، فعلى ذمة التاريخ »

وأضاف السيد توفيق : « وهناك من الأدلة التاريخية المجمع على صحتها ، ما يؤيد أن سكينة تزوجت بعد ابن عمها عبد الله بن الحسن بن علي ، بمصعب بن الزبير ، زوجه اياها أخوها الامام علي بن الحسين السجاد - ع » (١)

وأورد « ابن العماد الحنبلي » أسماء ثلاثة أزواج على الترتيب التالي : (٢)

مصعب بن الزبير ، ثم عبدالله بن عثمان بن عبدالله بن حكيم بن حزام ، ثم زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فأمره سليمان بطلاقها ولم يذكر اسم عبدالله بن الحسن الذي اقتصر عليه السيد الموسوي وكذلك لم يذكره « ابن خلكان » وإنما جاء بقائمة فيها أربعة أزواج ، تبدأ « بمصعب بن الزبير » فهلك عنها .. ثم تزوجها عبدالله بن عثمان بن عبدالله بن حكيم بن حزام ، ثم الاصبغ وفارقها قبل الدخول بها ، ثم

(١) الفكيكي : السيدة سكينة بنت الحسين : ص ١٢٢ - وانظر معه (مقتل الحسين : ٣٦٨)

(٢) شذرات الذهب : ١٥٤/١

زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان فأمره سليمان بن عبد الملك بطلاقها ،
وقيل في ترتيب أزواجها غير ذلك » (١)

والذي في « نسب قريش ، للمصعب الزبيري » :

« كانت سكينه عند مصعب بن الزبير ، ثم خلف عليها عبدالله بن عثمان
ابن عبدالله بن حكيم بن حزام بن خويلد ، فولدت له حكيم وعثمان
- المعروف بقرين - وريحة التي تزوجها العباس بن الوليد بن عبد الملك
ابن مروان ، ثم خلف على سكينه زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، ثم
خلف عليها ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف فلم يتم نكاحه .. ثم خلف
عليها الاصبع بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم فحملت اليه بمصر
فوجدته قد مات » (٢)

فصار عدد أزواجها عنده خمسة أشخاص

وجاء أبو الفرج الأصبهاني بخمس قوائم مختلفة : (٣)

١ - مصعب بن الزبير ، ثم الاصبع ، ثم زيد العثماني ، ثم ابراهيم
ابن عبد الرحمن

٢ - الاصبع ، ثم زيد العثماني ، ثم مصعب بن الزبير ، ثم ابراهيم
عبد الرحمن

٣ - عمر بن الحسن ، ثم زيد العثماني ، ثم مصعب ، ثم الاصبع المرواني ،
ثم عبدالله بن عثمان

٤ - عمر بن حكيم بن حزام ، ثم زيد بن عمرو بن عثمان ، ثم مصعب ،
ثم ابراهيم

٥ - عبدالله بن الحسن ، ثم مصعب ، ثم الاصبع المرواني ، ثم زيد
العثماني ، ثم ابراهيم

وتضيف رواية سادسة ، أن عبدالله بن مروان خطبها بعد مصعب .

(١) وفيات الاعيان : ٢٩٨/١

(٢) نسب قريش : ٥٩ - وجاء في (جهمرة انساب العرب : ان زوجها زيدا العثماني ،
هو ابن عمر بن عثمان ، لا عمرو (٧٩) وجاء مرة بهذا الاسم زيد بن عمر في نسب قريش ١٢٠
ولعل سبب الاختلاف أن لعثمان بن عفان ولدين هما عمر وعمرو . انظر نسب قريش (١٠٤) ،
والجهمرة (٧٥)

(٣) الاغانى : ١٥٨/١٤ ، ١٦١

فرفضته أمها وقالت : لا والله ، لا تتزوجه أبدا وقد قتل مصعبا ،
ابن أخى (١)

وفي هذه القوائم أضيف اسمان جديدان الى الأسماء التى وردت فى
الروايات السابقة ، وهما : عمر بن الحسن ، وعمر بن حكيم بن حزام !
واختارت « دائرة المعارف » قائمة عجيبة ، ننقلها بنصها من الترجمة
العربية : (٢)

« فأول أزواجها مصعب بن الزبير ، وقد أنجبا من هذا الزواج ابنة
تزوجت من أخى مصعب !
ثم تزوجت عبد الله بن عثمان ، ابن أخى مصعب بن الزبير ، ثم الزبير !
ابن عمرو بن عثمان بن عفان

ثم الأصبح بن عبد العزيز بن مروان ، ولم يدخل بها . ثم ابراهيم بن
عبد الرحمن بن عوف . وعمرو بن الحاكم (!) بن حزام »
وفي هذه القائمة عجائب وغرائب من الأغلاط والأوهام :

فابنتها من مصعب ، تزوجت من أخى مصعب ، وهو عمها !!
وعبد الله بن عثمان ، هو ابن أخى مصعب بن الزبير كما تقول الدائرة ،
وليس لمصعب أخ يدعى « عثمان » فى أى مرجع من مراجعنا ، وفد أورد
الزبيرى - حفيد الزبير - أسماء ولد الزبير بن العوام ، ولا عثمان
فيهم ! (٣)

وزوجها الثالث فى الدائرة : الزبير بن عمرو بن عثمان . وليس لعمرو
ولد يدعى الزبير ، فى (جمهرة أنساب العرب) و (نسب قریش)
وآخر أزواجها فى الدائرة : عمرو بن الحاكم بن حزام ، وليس لحزام
ولد يدعى الحاكم وإنما هو حكيم ، وليس لحكيم ولد يدعى عمرا فى
أنساب العرب أو نسب قریش (٤)

(١) الاغانى : ١٦٢/١٤ ساسى
(٢) مادة : سكينه بنت الحسين
(٣) نسب قریش : ٢٣٦ والجمهرة ١١٢
(٤) نسب قریش : ٢٣١ والجمهرة ١١٢

أما عبدالله بن الحسن ، فصرحت الدائرة بأنها تستبعد زواجه من سكيئة ، دون أن تبين لنا سبب هذا الاستبعاد ..

وتقارن بين هذه المرويات فترى :
أن زوجها الاول : هو ابن عمها عبدالله بن الحسن ، في احدى روايات الأغاني (١) . واقتصرت عليه بعض المصادر الشيعية الحديثة (٢)
ولم يذكره « ابن خلكان » ، وأنكرته دائرة المعارف دون تعليل لهذا الإنكار .

أو هو عمر بن الحسن ، في رواية الأغاني نفسها
أو هو مصعب ، في رواية ابن خلكان والمصعب الزبيري واحدى روايات الأغاني ودائرة المعارف

أو هو الاصبع بن عبد العزيز بن مروان في رواية بالأغاني !
ويختلف موضع الزوج بين الأزواج ، فيكون الاصبع أولهم في رواية ، ورابعهم في أخرى !

وتختلط الاسماء اختلاطا عجيبا ، بل شاذا ، حتى ليشطر الاسم الواحد شطرين ، يؤتى بكل شطر منهما على حدة ، فيكون منهما زوجان للسيدة سكيئة !

فعبدالله بن عثمان بن عبدالله بن حكيم بن حزام ، شطر شطرين ، فكان منه زوجان :

عبدالله بن عثمان ، وعمرو بن حكيم بن حزام ، أو كما ترجم في دائرة المعارف : عمرو بن الحاكم !

ولا سبيل هنا — أمام ما نرى من تناقض وشدوذ — الى تتبع حياتها الزوجية تتبعاً دقيقاً يعتمد على اليقين التاريخي ، هذا اليقين الذى يعز علينا فى التاريخ النقلي بوجه عام ، وهو هنا فى موضوع زوجية سكيئة ،

(١) ح ١٤ س ١١٠ : السيدة سكيئة ٧٥ ، ١١٢ — والسيد عبد الرزاق الموصى : مقتضى الحسين : ٣٦٨

أبعد من أن يلتبس وأعز من أن يدرك أو ينال . فنحن لا نكاد نحاول ما نبغى من تتبع حتى يلقانا عنق من اضطراب الروايات وتناقض الأخبار وتعدد الأقوال واشتباك السبل ، الى حد يتعذر علينا معه أن نستبين وجه الحق في هذا الحشد المختلط المشتبك ، واذ ذاك لاسبيل الى أن نطمع في أكثر من الترجيح الذى يعتمد على ما نسميه الطمأنينة النفسية ، أكثر مما يعتمد على مرجحات منهجية وقرائن غالبية

لقد كان أمر هذا التناقض في الروايات والأخبار يهون ويسهل ، لو أنه توزع بين مراجع شتى مختلفة ، ينفرد كل منها بأحدى الروايات فيكون سبيلنا الى الترجيح أن نختار أقدمها أو أصلها أو أدعائها الى الثقة ، على هدى القواعد المقررة للترجيح والوزن والمقابلة ، والتعديل والتجريح ولكننا هنا أمام روايات متناقضة تجتمع في المصدر الواحد ، دون محاولة من مؤلفها للفصل بينها أو حسم الخلاف فيها ، بل دون كلمة تؤذن بأنه يحس ضيقا بهذا الخلاف

ففى صفحة واحدة من الأغاني مثلا ، تقرأ أربع روايات متناقضة متضاربة ، سردها أبو الفرج متتابعة ، ثم لا شئ أكثر من هذا السرد (١) وإذا بلغ الخلاف في الموضع الواحد أن يكون الاصبع المروانى أول أزواجها في رواية ، ورابعهم في أخرى ، ثم لا يشار الى هذا الخلاف بكلمة واحدة

وإذا بلغ الشذوذ فيما يروى عن حياتها الزوجية ، أن تلد لمصعب بنتا تتزوج من عمها أخى مصعب ! (كما في دائرة المعارف الاسلامية) وأن يقال أن الرباب بنت امرئ القيس ، التى أهلكها الحزن على زوجها الحسين فماتت بعده بعام واحد ، قد بعثت من قبرها لتشهد مصرع مصعب بعد سنة ٧٠ هـ وترفض زواج بنتها سكيئة من قاتله ! (كما في الأغاني) وأن تزوجها (دائرة المعارف) عبدالله بن عثمان ، ابن أخى مصعب ، وعمر بن الحاكم بن حزام ، ولا خبر في نسب قریش وأنساب العرب عن

(١) ج ١٦/١٤ س١

«وجود أخ لمصعب اسمه عثمان ، أو حفيد لحزام اسمه عمرو بن الحاكم أقول : اذا بلغ الأمر هذا المبلغ من التناقض والاضطراب والشذوذ ، فمن العبث أن نطمح في قرائن منهجية مرجحة ، وبخاصة اذا قدرنا أن هذه الكتب - وحالها كما رأيت - هي مصدر مادتنا عن السيدة سكينه ، ومرجعنا فيما نورد من أخبارها

والذين جربوا الدراسة اعتمادا على الرواية النقلية ، قد عانوا الكثير من مثل ذلك التناقض اللافت ، وضجوا بالشكوى منه ، سواء منهم الذين اشتغلوا بالتراجم والسير ، ومن كتبوا في التاريخ السياسى أو الأدبى

وحين تعوزنا مرجحات منهجية ، لا يبقى لدينا الا أن نلوذ في قبول ما تقبل من هذه المرويات ، ورفض ما نرفض منها ، بما نطمئن اليه نفسيا على هدى ما نعرف من سنن الفطرة ، وما نقرأ من شتى الأخبار ، وما نفهم من احياء البيئة وطبيعة الشخصية ومقتضيات الموقف !

مع عبد الله بن الحسن

ونبدأ بعبد الله بن الحسن بن علي
ذاك الذي اقتضرت عليه بعض المصادر الشيعة الحديثة ، ولم يذكره
ابن خلكان ، وذكره أبو الفرج مرة باسم عبدالله ومرة باسم عمر ، وقالت
الدائرة : « أما ما ذكره صاحب الأغاني من زواج سكينه بابن عمها
عبد الله بن الحسن بن علي ، فقول بصح لنا انكاره »
لماذا صمتت الدائرة فلم تذكر كلمة عما دعاها الى الانكار ؟.. وليس
الانكار أمرا سهلا ، ولا هو مما يجوز أن يرسل بغير دليل
انه — في حساب المنهج — كالاتبات تماما ، كلاهما يفتضيان أن تأتي
بدليل ..

وذلك بخلاف التوقف ، فهو وحده الذي لا يلزمك بالدليل ، وانما
يكفى فيه ألا تطمئن في الخبر الى اثبات أو انكار
ولسنا نملك هنا أى دليل ، يؤيد مسلك (الدائرة) في استبعاد القول
بزواج سكينه من ابن عمها الحسن ، فصمت بعض المراجع التاريخية عن
ذكره ، لا يمكن أن يرقى الى مرتبة القرائن — بله الأدلة — بعد الذي
أشرنا اليه من تناقضها واضطرابها
واذن فليس ثمت ما يمنع من أن يكون عبدالله بن الحسن خطبها أو
تزوجها كما ذكرت المصادر الشيعة

ولكننا نعلم أن عبدالله قد قتل بالطف مع أخيه القاسم ، ذكر ذلك
الأصفهاني في (مقاتل الطالبين) والطبري الذي أورد اسم عبدالله والقاسم
ابني الحسن ، بين من استشهدوا مع الحسين في كربلاء ، وذكره كذلك
الزبيرى في نسب قریش ، وابن حزم في الجمهرة ، والسيد عبد الرزاق

الموسوى فى (مقتل الحسين : ٣٣٨)

ونحن نظمئن ، الى أن سكينه قد قتل عنها أبوها ولما تتزوج ..
ولو قد تزوجت فى حياته ، لما فات ذلك - فيما نرجح - الذين أرحوا
للحسين ، كما لم يفتهم خبر خطبة الحسن المثنى لاحدى ابنتى عمه ،
واختيار الحسين ابنته فاطمة زوجة له

ولما فات الذين تتبعوا أنساب قريش
فلعله اذن خطبها الى أبيها ، ولم يتم الزواج . كما ذكر « الطبرى »
فى أعلام الورى

ويرجح عندنا عدم اتمام الزواج ، ما ذكره السيد عبد الرزاق الموسوى
فى (مقتل الحسين : ٣٣٨) من أن عبد الله بن الحسن كان غلاما ، يوم
مقتله بالطف

ولا نملك ما نضيفه الى هذا ، وليس فى أى مرجع مما بين أيدينا ،
ما يشير الى هذا الزواج بأكثر من الخبر المقتضب ، الذى أوردناه (١) ،
والذى ليس فيه أكثر من انه تزوجها وقتل عنها بالطف ولم تلد له

وأغلب الظن ان السيدة سكينه نفسها لم تشغل بهذه الخطبة
الأولى - لو صح الخبر عنها - فى تفرغ واهتمام ، بل كان بالها مشغولا
بهذا الأب الحبيب فى معركته العنيفة ، وأن الأحداث قد جذبتها الى دوامة
الاعصار ، وشغلتها عن خطيب وبيت ، كما فعلت بعمتها السيدة زينب ،
التي عاشت فى صميم المعركة ، حتى كدنا ننسى أنها زوجة وأم

وقد ألهمت النجيلة الكبرى فى الحسين « زينب » عن ولد لها استشهد
مع عمه فلم نسمعها تذكره أبدا ، وكذلك ألهمت الرباب - أم سكينه -
عن ولدها عبدالله ، فلم يصل إلينا أى خبر يصور حزنها عليه ، وإنما الذى
وصل إلينا أنها رثت زوجها الامام ، وعاشت تبكيه حتى ماتت حزنا عليه ،
بعد عام واحد من كربلاء (٢)

(١) عن « الاغانى » والسيد عبد الرزاق الموسوى . والطبرى
راجع قوائم الأزواج التي أوردناها فى مستهل الفصل
(٢) ابن الاثير : الكامل ٧٣/٤

فلا غرابة إذن في أن تكون خطبة عبد الله لسكينة ، قد مرت بها عابرة كأن لم تكن ، لا في حسابها هي ، ولا في حساب الذين كتبوا تاريخ تلك الفترة ، وهزتهم أحداثها الكبار ، فما عادوا يذكرون إلا المأساة الفادحة ، التي خضبت صفحة من التاريخ الاسلامي ، لا نعرف لها مثيلا ، بشاعة وعنف أثر ...

وما كان من السهل أن تفرغ بنت الحسين لمشاغل الزواج ، في تلك الفترة التي تلاحقت فيها الأحداث الجسام ، متدافعة في سرعة عنيفة تبهر الأنفاس ، نحو ذروتها الفاجعة !

ولا كان من المقبول أن تسكن الى زوج ، وتدع أباهما في همه الأكبر ، وهو الذي ما كان يأنس الا بها ، ولا يستريح الا اليها ..

مع مصعب بن الزبير

وانما تبدأ حياتها الزوجية الحقة ، بمصعب بن الزبير
والأرجح عندنا أنه كان أول من تزوجته بعد مقتل أبيها الامام
وهو أول أزواجها عند ابن خلكان (٢٩٨/١) وعند المصعب بن
عبدالله الزبيرى فى نسب قريش (٥٩)
وكذلك هو أولهم فى احدى روايات الأغاني (١٦٢/١٤) وفى شذرات
الذهب (١٥٤/١)
وسواء أكان أول من تزوجها على ما ذكر هؤلاء ، أم كان قد تزوجها
بعد أن قتل خاطبها الأول عبد الله ، ابن عمها الحسن - على ما تقول
الرواية الأخرى - فالذى لا يكاد يَختلف فيه ، ان مصعبا يأخذ المكان
الأول فى حياتها الزوجية الطويلة
ومعه بدأت تحس نوعا من الاستقرار ، وتحاول أن تتناسى ما مر بها
من محن وكروب ، ولما تزل فتاة فى عنفوان الصبا وعز الربيع

أمنية قديمة

وقد أشرت من قبل ، الى أن الزواج من سكينه كان أمنيته قديمة
لمصعب ، تعلق بها رغبته أيام ظهرت فى المجتمع المكي لأول مرة ، عندما
صحبت أباهما رضى الله عنه فى رحلته الى البيت الحرام ، اثر ولاية يزيد
ابن معاوية ، والحاحه على واليه بالمدينة أن يأخذ له البيعة من الحسين
قسرا

ويبدو أن مصعبا صارع برغبته هذه بعض أصفائه ، بعد أن خرجت
من مكة مع من خرج من آل الحسين ، فى رحلة الموت ، تلك التى

انتهت بمذبحة كربلاء ..

ففى كتاب « عيون الأخبار » ، ان أربعة من رجالات قريش ، هم : « عبد الله بن عمر ، وعروة بن الزبير ، ومصعب بن الزبير ، وعبد الملك ابن مروان ، اجتمعوا بفناء الكعبة ، فقال لهم مصعب : « تمنوا » . فقالوا : « ابدأ أنت » . فقال : « ولاية العراق ، وتزوج سكينه بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله » وتمنى عروة بن الزبير الفقه ، وأن يحمل عنه الحديث ، وتمنى عبد الملك الخلافة ، وتمنى عبد الله بن عمر الجنة » (١)

فلما حالت الظروف أول الأمر دون زواجه من « سكينه » تزوج من تلك الأخرى التى تمنّاها : عائشة بنت طلحة ، غادة قريش الجميلة التى خلّد اسمها شعراء الحجاز : عمر بن أبى ربيعة ، والحارث بن خالد المخزومى ، وابن قيس الرقيات (٢) ، فى قصائد رجعتها معازف المغنين وأصوات المغنيات ، كما تعلقّت بها آمال عدد من أمجد الفتيان القرشيين ، فما يمضى عنها زوج الا سارع الخطاب متلهفين الى تلك التى شاعت فيها قوله « أبى هريرة » حين رآها لأول مرة : سبحان الله !.. كأنها من الحور العين (٣)

و«عائشة» كانت تجمع الى جمالها عزة النسب : فأبوها طلحة بن عبيد الله التيمى ، صاحب الجليل . وأمها أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق ، وخالتها عائشة أم المؤمنين

تزوجها قبل « مصعب » ، ابن خالها « عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق » . وكانت خالتها السيدة عائشة هى التى سمعت فى هذا الزواج ، فلقى عبد الله الأمرين من دلالها ومصارمتها وشراسرتها - وكان يقال فى نساء بنى تيم : هن أشرس خلق الله وأحظاهن عند أزواجهن . وكانت عمتها أم اسحق بنت طلحة عند الحسين بن علي ،

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار : ٢٥٨/٢ دار الكتب المصرية

(٢) اقرا اشعارهم فى (الاغانى ج ١١ دار الكتب)

(٣) الاغانى : ١٨٩/١١ دار الكتب ، وأنظر فيه كلمة أخرى لابی هريرة ، ص ١٩٢ ، ١٨٠

فسمع مرة يقول : « والله لربما حملت ووضعت وهى مصارمة لى
لا تكلمنى .. »

وزاد « عائشة بنت طلحة » زهو الجمال شراسة على شراسة ، حتى
مكثت مصارمة غضبى عند خالتها السيدة عائشة ، فقيل له : « طلقها » ،
فأجاب منشدا : (١)

يقولون : طلقها لأصبح ثاويا
مقيما على الهم ! .. أحلام نائم
وان فراقى أهل بيت أحبهم
لهم زلفة عندى لاحدى العظام
ولبت يكابد منها ما يكابد ، فى صبر واحتمال ، حتى مات عنها فما
فتحت فاها عليه ! ..

مات ، وترك لها أربعة بنين : عمران - وبه كانت تكنى - وعبد
الرحمن ، وأبا بكر ، وطلحة ، وبتنا واحدة هى نفيسة تزوجها الوليد
ابن عبد الملك (٢)

ومع ذلك العبء الثقيل من الأبناء ، وما ذاع فى المجتمع الفرشى من
أخبار ما لقي زوجها الراحل من شراستها ومصارمتها ، هفت فلوب الى
الزواج منها
وكان « مصعب » أحد هؤلاء ...

وقد أحب أول الأمر أن يستطلع حالها بعد أن أثقلتها الأيام بأعباء
الحمل والولادة خمس مرات ، فبعث « عزة الميلاء » - المغنية المشهورة -
لتأتيه بوصفها ، وكانت « عزة » خبيرة بشئون النساء . فمضت عزة ،
حتى دخلت على عائشة فابتدرتها قائلة :

— فديتك ، كنا فى مأدبة — أو مأتم — لقريش ، فتذاكروا جمال

(١) كذا فى الاغانى (١٨١/١١ دار) والدى فى (نسب قريش ص ٢٧٧) ان هذه الابيات
لعبد الله ، فى زوجته عائكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل
(٢) كذا فى (جوهرة انساب العرب : ١٢٨) ومثله فى (الاغانى ١١ ، ١٨٠ دار الكعب) وقال
فى (نسب قريش) بعد ذكر ولد عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر : وأمه عائشة بنت
طلحة . (ص ٢٧٨) ولعله خطأ مطبعى صوابه : وأمه عائشة بنت طلحة ، كما فى الجوهرة
والاغانى

النساء وخلقهن ، فذكروك فلم أدر كيف أصفك ، فديتك ، فألقى ثيابك .
ففعلت عائشة ...

وتأملت عزة مليا ثم قالت : خذى ثوبك فديتك !
وهمت بالانصراف ، لكن « عائشة » أمسكتها وقالت : قد قضيت
حاجتك ، وبقيت حاجتى

سألتها عزة : وما هى ، بنفسى أنت ؟

أجابت : تغنينى صوتا

فاندفعت تغنى لحنها فى شعر جميل بشينة :

خليلى عوجا بالملحة من جمل

وأترابها ، بين الأصيفر والخبيل

نقف بمغان قد حبا رسمها البلى

تعاقبت الأيام بالريح والوبل

فلو درج النمل الصغار بجلدها

لأندب أعلى جلدها مدرج النمل

فقامت « عائشة » فقبلت ما بين عينيها ، ودعت لها بعشرة أثواب

وبطرائف من الفضة ..

وعادت عزة تقول لمصعب :

« لا والله ما رأيت مثلها مقبلة ومدبرة .. نقيه الشجر وصفحة الوجه ،

فرعاء الشعر لفاء الجسم ممثلة الصدر خميصه البطن ... وفيها عيان :

أما أحدهما فيواريه الحمار وأما الآخر فيسوايه الحنف : عظم الأذن

والقدم « (١)

وتزوجها مصعب ..

وأ مهرها خمسمائة ألف درهم ، وأهدى لها مثل ذلك (٢)

وكان ابن قيس الرقيات قد قال فى « عائشة » :

(١) الاغانى : ١٧٧/١١ دار الكتب

(٢) الاغانى : ومثله فى (عيون الاخبار : ٢٥٨/٢)

ان الخليط قد أزمعوا تركى
فوققت فى عرساتكم أبكى
عجبا لملك لا يكون له
خرج العراق ، ومنبر الملك
وغناه معبد (١)

فكان لعائشة خرج العراق بالزواج من أميره مصعب بن الزبير
أما منبر الملك فادخره القدر لابتها من زوجها الأول : نفيسة بنت
عبد الله حفيد الصديق ، اذ تزوجها - لما شبت - الوليد بن عبد الملك
أمير المؤمنين (٢)

وكذلك تحققت لمصعب أمانتان من أمانيه الثلاث : ولاية العراق ،
وتزوج عائشة بنت طلحة
وبقيت الأمانة الثالثة : بقى أن يتزوج من سكينه بنت الحسين ، فيجمع
بين أجمل غادتين فى زمانه ! ..

وقد شغلته الشواغل الجسام التى ألقى على كواهل آل الزبير بعد
استشهاد الامام الحسين فى كربلاء ، اذ اعتصم كبيرهم « عبد الله »
بالبيت الحرام ودعا الى نفسه بالحجاز . وتأهب « يزيد » لقتاله بعد فترة
من مصرع الحسين وأهله ، وسير اليه فعلا جند الشام بقيادة « مسلم بن
عقبة » فبدأ بالمدينة وقتل أهلها مقتلة عظيمة فسمى ذلك اليوم يوم
الحره ، (٣) وأنهب جنده ثلاثة أيام ، ثم شخص بمن معه متوجها نحو
مكة فأدركته منيته فى ثنية هرشى ، وسار الجيش من بعده فحاصر
ابن الزبير

لكن الموت لم يمهل « يزيد » حتى يفرغ من ابن الزبير ، فقد جاء
نعيه من دمشق يوم أهل زبيح الآخر من تلك السنة ، واستخلف من بعده

(١) الاغانى : ١٧٥/١١ دار الكعب

(٢) جمهرة أنساب العرب : ١٢٨

(٣) تاريخ الطبرى : ٥/٧ . ومقاتل الطالبين : ١٢٣ ومابعدها ونسب قريش : ١٢٧

ابنه « معاوية الثاني » وعمره يومئذ أقل من ثلاثة عشر عاما وأمه بنت أخى هند ، هاشم بن عتبة بن ربيعة

وأحس الغلام انه أضعف من أن يحتمل العبء الجليل ، فما كاد يلي الخلافة حتى أمر فنودى بالشام : الصلاة جامعة . ثم صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فاني قد نظرت في أمركم فضعفت عنه . فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب - رحمة الله عليه - حين فزع اليه أبو بكر ، فلم أجده . فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة « عمر » فلم أجدها ، فأتتم أولى بأمركم فاخترتوا له من أحببتهم

« ثم دخل منزله ولم يخرج الى الناس ، وتغيب حتى مات بعد أربعين يوما ، فقال بعض الناس : دس اليه فسقى سما ، وقال بعضهم : طعن » (١) وتولاها مروان بن الحكم ، فلم يلبث أن مات في مسنهل شهر رمضان من العام نفسه (٢)

وخلفه ابنه عبد الملك ، لكن بعد أن استفحل أمر عبد الله بن الزبير بمكة ، وأفلت زمام العراق من بنى أمية وكاد يفلت كذلك من أيدي الزبيريين بوثوب « المختار » بالكوفة واستفحال خطره ، ومحاولاته انتزاع العراق لنفسه ، بدعوى الشار للحسين !

وهكذا ألقي « مصعب » نفسه في صميم المعركة .. لكنه ظل مع ذلك يتلفت نحو الحجاز حيناً ، ويشغل بمشاغبات زوجته الحسناء عائشة بنت طلحة حيناً آخر ، لعله ينسى أمنيته الثالثة التي لم تتحقق ...



ولا أدري كيف رضى « مصعب » أن تذاع في الناس أخبار حياته الخاصة مع عائشة - ان صحت هذه الأخبار - وأن يدع الشعراء

والسمار يجعلون من جمالها ودلالها ومتعة مصعب بها ، مادة السمر والحديث !

ومن هذه الأخبار التي ذاعت عنه مع عائشة ، ما يبدو مناقضا للذائع المشهور من مروءته ، اللهم الا أن يفسره عامل نفسى جعل « مصعبا » ينالها عن أمنيته التي لم تتحقق بالزواج من بنت الحسين ، ويحاول اقناع نفسه والناس معه ، بأنه بعائشة فى شغل ! ..

أو لعل جمال عائشة ، كان مادة خصبة لمخترعات السمار وتهاويل النصاص واضافات الرواة جيلا بعد جيل ...

من تلك الأخبار مثلا ، ان عائشة غضبت عليه يوما ، فشكا ذلك الى أشعب - وكان مقربا اليها - فسأله أشعب : ما لى أن رضيت عائشة ؟ أجاب مصعب : حكمك

فقال أشعب : عشرة آلاف درهم ! ..

قال مصعب : هى لك ...

ومضى أشعب حتى أتى عائشة فقال لها : جعلت فداءك ، قد علمت حبى لك وولائى قديما وحديثا من غير مالة ولا فائدة ، وهذه حاجة قد عرضت تقضين بها حقى وترتهنين بها شكرى سألته : وما عناك ؟ ..

فأجاب : قد جعل لى الأمير عشرة آلاف درهم ان رضيت عنه ! .. قالت : ويحك ، لا يمكننى ذلك ...

فصاح بها : بأبى أنت ، فارضى عنه حتى يعطينى ثم عودى الى ما عودك الله من سوء الخلق ! .. قالوا : فضحكت منه عائشة ، ورضيت عن مصعب (١)

ومنها : ان مصعبا دخل عليها يوما وهى نائمة متصبحة ، ومعه ثمانى لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار ، فنبهها ونثر اللؤلؤ فى حجرها . فقالت وهى تشيح بوجهها : نومتى كانت أحب الى من هذا اللؤلؤ ! .. (٢)

(١) الاغانى : ١٧٧/١١ دار الكتب

(٢) الاغانى : ١٨٢/١١ دار الكتب

ومنها : انه شكّا مرة الى كاتبه ابن أبى فروة ما يجد من شراستها
ومعاسرتها اياه ، فذهب اليها أبو فروة هذا مع عبيدين أسودين ، وادعى
أن سيده أمره بحفر بئر تدفن فيها عائشة حية ! .. فقد ظن أنها تبغضه
فجن غضبه ! .. فصدقته (! !) وما زالت تلح على أبى فروة أن يعاود
مصعبا ، وأقسمت ألا تغاضبه ! (١)

ومنها : انها كانت يوما فى مجلسها مع جمع من نساء قریش ، فغنتها
« عزة الميلاء » من شعر امرئ القيس :

وثغر أغر شتيت الثنا

لذيذ المقبل والمبتسم

وما ذقتـه غير ظن به

وبالظن يقضى عليك الحكم

وكان مصعب قريبا منهن ، ومعه بعض اخوانه ، فقام منفعلا حتى دنا من
الستور المسبلة وصاح : يا هذه ، انا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفت !
ثم قال لعائشة : أما أنت فلا سبيل لنا اليك مع من عندك ، وأما
عزة فتأذنين لها أن تغنينا هذا الصوت ثم تعود اليك

وانتقلت عزة الى مجلس الرجال ، فغنت هذا الصوت مرارا ...

وكاد مصعب أن يذهب عقله فرحا ! (٢)

ومنها تلك القصة التى ذكرها الشعبي ، قال : « دخلت المسجد فاذا
أنا بمصعب بن الزبير والناس حوله ، فسلمت ثم أردت الانصراف فقال
لى : ادن . فدنوت حتى وضعت يدي على مرفقته ، ثم قال : اذا قمت
فاتبعنى . فجلس قليلا ثم نهض فنوجه نحو دار موسى بن طلحة ، فتبعته
حتى دخل حجرته ، فرفع السجف فاذا أنا بعائشة بنت طلحة فلم أر زوجها
فبط أجمل منهما : مصعب وعائشة . قال مصعب : يا شعبى ، هل تعرف
هذه ؟ .. فقلت : نعم ، أصلح الله الأمير ، هى سيدة نساء العالمين عائشة
بنت طلحة ، قال : لا ، ولكن هذه ليلي التى يقول فيها الشاعر :

(١) الاغانى : ١٨١/١١ دار الكتب

(٢) الاغانى : ١٨٣/١١ دار الكتب

وما زلت من ليلي لدن طر شاربي
الى اليوم أخفى حبها واداجن
وأحمل في ليلي لقوم ضغينة
وتحمل في ليلي على الضغائن ! ..
ثم أذن لي فقامت . فلما كان العشي رحت الى المسجد ، واذا هو في
مجلسه هناك ، فسلمت فاستدنانى وقال : هل رأيت مثل ذلك لانسان
قط ؟ قلت : لا والله . قال : أفندرى لم أدخلناك ؟ قلت : لا . قال :
لتحدث بما رأيت ! ثم التفت الى عبد الله بن أبى فروة فقال : اعط
التعبى عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوبا ، فما انصرف يومئذ أحد بمثل
ما انصرفت به : بعشرة آلاف درهم ، وبالثياب ، وبمنظرة الى عائشة بنت
طلحة « (١) »

ومنها ... ومنها ...

وانه لموقف صعب التصديق من مثل مصعب ، أن يتنزل أخبار حياته
الخاصة هكذا ، وهو مضرب المثل في المروءة
ويزيده صعوبة ، ان الرجل كما رأينا ، قد كان في صميم المعركة التى
احتدمت بين بنى أمية وآل الزبير ، بعد أن تولى « عبد الملك » الخلافة
في دمشق

أهى اذن من اضافات الرواة ومبتدعات القصاص ؟ ..
غير بعيد ...

أو لا ، فهى تشاغل من « مصعب » ، حين لم يعد يجديه التعلق بما
بدا شبه ميثوس منه ، والالتفات الى ما فاتته من تزوج بنت الحسين
ومهما يكن رأى فى تلك المرويات والأقاصيص ، فالذى لا شك فيه
ان احتدام المعركة لم يلبث أن استأثر بأكثر هم « مصعب » فلم يدع له
وقتا يفرغ فيه لمشاغله الخاصة ، اللهم الا فترات خاطفة كانت عائشة
كفيلة بأن تملأها عليه

(١) ابن قتيبة : ميوون الاخبار - ٢١/٤ ، الاغانى : ٣١٠/٢ دار الكتب

ثم استطاع كسر الغداة ومر العشى لمدى سنين ، أن يطوى الأمنية
القديمة تحت ركام من التشاغل والتناسى ...

المهر الفالى

ولكن الركام انهار ...
ومن تحته بدت الرغبة المكبوتة متوهجة ، وكأن لم تزدها الأيام
والليالى الا احتداما واحتكاما ...
ذاك يوم عرف أن « سكينه » كفت عن تمسكها بالعزوف عن الزواج ..
ولن يدعها « مصعب » تفلت من يديه
وشد رحاله الى « المدينة » وتقدم الى أخيها السجاد زين العابدين ،
على بن الحسين ، يطلب مصاهرته ، يرشحه لهذا الشرف : كرم أصله ،
واكتمال مروءته ، وعزة فروسيته ...
وقبل ابن الحسين ...
وقبلت سكينه ...
وطار النبأ فى أنحاء الحجاز ، ان مصعبا قدم ألف ألف درهم صداقا
لبنت الحسين ..
وزاد فأعطى أخاها عليا ، حين حملها اليه ، أربعين ألف دينار ..
ولم يدهش أحد لهذا ، بعد أن أصدق مصعب « عائشة بنت طلحة »
ألف ألف ..

وأين بنت طلحة من بنت الحسين ؟ ..
ولكن شخصا واحدا ضاق بهذا الاسراف ..
ذلك هو عبد الله بن الزبير ، الذى جزع لهذه الألوف المؤلفة ، تدفع
مهورا لربات الجمال ، وبنو أمية هنالك فى دمشق ، يشترون بالمال سيوف
الرجال ، كما يحاربوا بها عبد الله بن الزبير ، وأخاه مصعبا ، كدأبهم
مع الشهيد الحسين وأبيه الامام على ، رضى الله عنهما

وسكت عبد الله بن الزبير على مضض ، حتى حملت اليه رسالة من
عبد الله بن همام ، يقول فيها :
أبلغ أمير المؤمنين رسالة
من ناصح لك لا يريد خداعاً
مهر الفتاة بألف ألف كامل
ونبيت سادات الجنود جيعاً
ولو لأبى حفص أقول مقالتي
وأبث ما أنبأتكم لارتاعا !
قال عبد الله بن الزبير : صدق والله ، لو قيلت هذه المقالة لأبى حفص
-- عمر بن الخطاب -- لارتاع من تزويج امرأة على ألف ألف ... (١)
وكان مصعب يومئذ أميراً على البصرة ، فبعث اليه أخوه ، يعزله
ويستدعيه

متى تم زواج سكينه بمصعب ؟
ذكرت إحدى الروايات ، انه تزوجها وهو عامل لأخيه على البصرة ،
ونرجح انه قد كان بعد سنة ٦٦ هـ
ذلك لأن مصعباً كان في سنة ٦٥ هـ ، عاملاً لأخيه على المدينة (٢) .
والمطمأن اليه انه تزوج من سكينه وهو بالعراق ، وإذا صحت رواية
الأغاني عن عزل عبد الله لأخيه مصعب عن ولاية البصرة ، لما أن جاءه
خبر الصداق الغالي الذي دفعه لبنت الحسين ، فان الزواج يكون قد تم
في عام ٦٧ هـ ، حيث كان مصعب هناك والياً .. (٣)
على أن عبد الله بن الزبير لم يلبث أن رد أخاه إلى البصرة والعراق ،
لما ظهر من تخليط ابنه « حمزة بن عبد الله » هناك . ثم ندب مصعباً لحرب

(١) الاغانى : ١٦٣/١٤ ساسى

(٢) تاريخ الطبرى : ١٤٦/٧

(٣) تاريخ الطبرى : ١٦٢/٧

المختار بالكوفة ، بعد أن ظهر بغيه وجوره وفتكه بأهلها ، تحت فئاع الثأر
لسيد الشهداء

مناصفة خطرة

انتقلت العروس الهاشمية ، ذات العشرين ربيعاً ، الى بيت زوجها
مصعب بالعراق ، في موكب حافل وجهاز فخيم
ولعلها تلبث فترة عندما ودلت راحلتها أرض العراق ، تحديق في
ساحة الذكريات ، وتكر بها راجعة الى الماضي ...

على أنها حين دخلت بيت مصعب ، طوت أحزانها عند الباب ، كما
اعتادت أن تفعل من قديم ، واستقبلت دنياها بوجه يتألق بشرا ، وهنالك
لقيتها « عائشة بنت طلحة » في أتم زينة ، وكأنها المجلوة لعرس !..
وكان ثمة زوجة ثالثة قد سبقتها الى بيت مصعب ، تلك هي « فاطمة
بنت عبد الله بن السائب الأسدي » تزوجها مصعب لا عن رغبة وحب ،
ولكن بدافع من مروءته وشهامته

فلقد كانت قد تزوجت من قبله ، عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ،
فلما دخل عليها طلقها وهي على منصة العرس ، فأتى أبوها عبد الله بن
السائب - وكان شريفا وسيطا من سادة بني أسد - الى حلقة في المسجد
من قريش ، فيها نفر من بني الزبير بن العوام الأسدي فقال :
« انى روجت عبد الله بن عمرو من بنتي فاطمة ، فطلقها على منصتها ،
وأنا أخاف أن يظن الناس انه رأى سوءاً ، وأنتم عسومتها ، فقوموا حتى
تنظروا اليها » (١)

فقال له عبد الله بن الزبير : اجلس
ثم التفت الى أخيه المصعب وكان جالسا في الحلقة ، وخطب فاطمة له ،
فزوجه اياها أبوها . وقال عبد الله بن الزبير لأخيه :
- انطلق فادخل على أهلك (٢)

(١) يلتقي نسب فاطمة مع آل الزبير ، عند أسد بن عبد العزى بن قصى . راجع الجهرة
(١٠٩) ونسب قريش ٢٢٨ ومابعدها
(٢) جهرة أنساب العرب ١٠٩ ، ونسب قريش ٢٢١

وانما رجحنا أن تكون فاطمة قد سبقت سكينه الى بيت مصعب ، لأنها ولدت له ولدين هما : عيسى وعكاشة ابنا مصعب ، وقد شهد عيسى موقعة مسكن التي قتل فيها مصعب عام ٧٠ هـ وكان القوم عرضوا عليه الأمان . فأبى الا أن يقتل مع أبيه ، وافتخرت ربيعة بقتله فقال شاعرهم :

نحن قتلنا مصعبا وعيسى وكم قتلنا قبله رئيسا
عمدا أذقنا مضرا التأيسا (١)

وغير معقول أن يكون قد شهد الموقعة طفلا يحبو ، بل الغالب أن مصعبا قد تزوج من فاطمة ، قبل مقتل الحسين بزمن لا نحدد مداه .. على أن سكينه ما كانت لتتهم بفاطمة ، وانها لتعلم الظروف التي ألجأت مصعبا الى الزواج منها

وانما حسبها أن تهم بالضرة الأخرى : عائشة بنت طلحة ، وترى فيها وحدها المنافسة الخطرة ، والغريمة التي تستحق أن يحسب لها حساب !



وفي بيت مصعب ، بدأت سكينه عهدا جديدا من حياتها ، بدت فيها كما لو كانت نسيت كل ما ذاقته من نكبات ، وما روع صباها من فادحات الخطوب وقاسيات المحن

والحق انها ما نسيت ، لكنها اعتادت أن تحتفظ بالشقاء لنفسها ، والا ترى الناس إلا تجملا

واذا كان هذا دأبها فيما مضى من حياتها ، فانها اليوم آحوج الى مزيد من التجميل ، وهى ترى ضررتها عائشة بنت طلحة ، لا تدع وسيلة الا سلكتها فى مجال التنافس والتحدى

وما كان أقوى شعور عائشة بجمالها ، واعتزازها بفتنتها ، وتفننها فى ابراز مواضع الحسن فيها ، حتى ولو كلفها ذلك أن تخرج على العرف أو تتخلى عن حياء الأئشى

(١) نسب قريش : ٢٤٩

وقد مر بنا الخبر (١) عن استجابتها « لعزة الميلاء » حين أحبت أن تراها عارية ، لما أراد مصعب خطبتها . وفي الأغاني (٢) أخبار من هذا الصنف وأشد . وفيه كذلك أن مصعبا عاتبها في سفورها وحاول أن يردها الى الحجاب ، فكان جوابها : « ان الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره !.. والله ما فى وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد ... »

وطالت مراودة مصعب اياها فى ذلك على غير طائل !..



وعائشة قد سبقت سكينه الى دنيا زوجها مصعب ، وغلبت عليه زمانا بفقتها ودلالها ، وكسبت بهذا السبق مزية ربما لم تتح لسكينه التى قضت مرحلة الصبا الغض فى ساحه البيت النبوى ، وما كانت لتستطيع — بحكم بيئتها ووراثتها — أن تتقن فنون الاغراء أو تتخلى لسبب — كائنا ما كان — عن عزة حيائها . ومن ثم لم تحاول أن تجارى عائشة فى أساليبها أو تصطنع أسلحتها ، وانما لاذت بعزة ملاحظتها ولطف محضرها وجلال ترفعها ، وبما أضفى عليها نسبها النبوى من سنا مشرق ، وبهاء ما بعده بهاء

وسكت رواة الأخبار فلم يذكروا لنا شيئا عن حياة سكينه مع مصعب ، مع انهم الذين ملئوا سمع الأجيال بدقائق حياته الزوجية مع عائشة ... لماذا ؟ ..

لست أميل الى الظن بأنه قد كانت هناك أخبار عن سكينه مع مصعب ، وطويت عمدا أو عن اهمال وضياع ، فالأخباريون فى تلك الفترة كانوا أجنح الى التزيد من صنع الأخبار ، ولو كانت شئون الحياة الزوجية الخاصة بين سكينه ومصعب قد خرجت الى الناس وعرضت على أعينهم ، لما سكت الرواة عن ذكرها ، بل لما تخرجوا من الخوض فيها ، الاضافة إليها . وقد رأيناهم يعرضون « عائشة » وهى زوجة وأم ، مجردة من

(١) أنظره فى صفحة ٧٢

(٢) أخبار عائشة بنت طلحة ، فى الجزء ١١ ط دار الكتب

ثيابها أمام هذه أو تلك من النساء ، ورأيهاهم يقتحمون بأخبارهم مخدعها وهي مع زوجها ، دون تخرج أو تأثم . ونحن لم نورد من هذه الأخبار الا القليل ، وأمسكنا عن نقل الباقي لأنه ليس مما يجوز أن يجرى على قلم مثلى ، ومن شاء فليرجع الى أخبار عائشة في (كتاب الأغاني) ليرى الى أى حد كانت أخص شئونها الزوجية ، مادة للاخباريين . وإذن فلا سبيل الى القول بأنهم تناولوا جانباً من حياة مصعب الزوجية وأعرضوا عن جانب .. لا سبيل الى الظن بأنهم - وقد دخلوا بيت الرجل - شغلوا باحدى الزوجتين يرصدون حركاتها ويسجلون كلماتها ، بل يحصون عليها أنفاسها ، وتركوا الزوجة الأخرى لا يكادون يحسون وجودها ...

وكان من الممكن أن نحسن الظن برواة الأخبار ، فنحسبهم تعففوا عن ذكر أخبار سكيئة مع مصعب ، لأنها بنت الحسين !.. ولكن يحول بيننا وبين هذا ، انهم نقلوا عنها بعد ذلك أنباء مثيرة بعضها مما لا يقبل من مثلها ولا يهين الاطمئنان الى صدوره عنها ، ولم تحل بنوتها لحسين ، ومكانها في بيت النبوة ، دون ملء الصفحات بهاتيكا الأخبار ، بل لم يعصمها هذا النسب العالى ، من ألسنة المتقولين وأقاويل الرواة وأراجيف المبطلين ... (١)

وانما سكتوا ، لأن « سكيئة » - فيما نرجح - لم تصطنع أساليب عائشة ، ولم تغد الرواة بمادة خصبة من أفانين دلالها وأسرار علاقتها الزوجية على نحو ما فعلت ضرثها

ولدينا - على هذا - شاهد من نص ، أورده أبو الفرج في ترجمة « مصعب » قال : انه لما دخل عليها يودعها وقد تنهأ للخروج لقتال عبد الملك ، صاحت من خلفه :

- واحزنه عليك يا مصعب !

فالتفت اليها وقال : أو كل هذا لى فى قلبك ؟.. قالت :

(١) نعرض لهذا ، فى الحديث عن « سكيئة فى المجتمع » فى الفصل الثالث من هذا الكتاب

— أى والله ، وما كنت أخفى أكثر (١)

وهو نص يفسر لنا بوضوح لم لم تكن حياتها الخاصة مع مصعب مادة
الإخباريين والرواة ، فضلا عن دلالة على اتزانها العاطفى ، وضبطها
لأمرها ، تجاه ما كانت « عائشة » تكشف عنه من أسرار زوجيتها

كان لكل منهما سلاحها الخاص فى تنافسهما على قلب الرجل الذى
أحبته كلتاهما أصدق الحب : فأولاهما تشيره بفتنة دلالها وأنوثتها ،
وترهقه صدا وقربا ، جفوة واقبالا ، وتبتذل له حينما بكل ما تسلك من
تفنن واغراء ، أو على حد تعبيرها ، بكل ما قدرت عليه (٢) ، ثم تصارمه
حينما حتى تجهد.

والأخرى تفتنه بجاذبية شخصيتها الفريدة ، وبكل ما اجتمع لها من
ظرف أسر ، وملاحة حلوة ، وجلال ساحر أخاذ

وكانت كل منهما تعرف مكان الأخرى ، وتقدر خطر سلاحها . وربما
تلاقتا وجها لوجه فباهت عائشة بما تتقن من أفانين الاغراء ، وأسكتتها
سكينة باللقب الذى كانت تطلقه عليها : ذات الأذنين (٣)

وربما اختصمتا الى حكم بينهما ، فيخلص من حرج الموقف بقوله :
— أما أنت ياسكينة فأملح منها ، وأما أنت يا عائشة فأجل ! (٤)

السر المذاع

على أن حياة أمير العراق لم تكن فارغة لهذه الشواغل النسوية الا
قليلا ، فان الصراع بين الزبيريين والأمويين ما لبث أن احتدم عنيفا
ضاريا ، وقد كان وجود مصعب فى العراق عقبة كأداء لا سبيل الى حسم
الصراع ما بقيت هناك

وقد صكت مسامع الأمويين مدائح الشعراء فى مصعب ، ومنهم عبيدالله

(١) الاغانى : ١١٦/١٨ ساسى

(٢) الاغانى : ٥٥/١٠ ساسى

(٣ ، ٤) الاغانى : ١٦٢/١٤

ابن قيس الرقيات ، اذ يقول : (١)

انما مصعب شهاب من اللـه تجلت عن وجهه الظالماء
ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء
ينقى الله في الأمور وقد أفلا ح من كان همه الالتقاء
وفي الخبر أن مصعبا أخذ رجلا من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه .
فقال : « أيها الأمير ، ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة الى صورتك هذه
الحسنة ، ووجهك هذا الذي يستضاء به ، فأتعلق بأطرافك وأقول : أي
رب ، سل مصعبا فيم قتلني . »

فأمر مصعب بإطلاقه ، فقال :

— أيها الأمير ، اجعل ما وهبت لي من حياتي في خفض
فأمر باعطائه مائة ألف ، فقال الرجل :

— بأبي أنت وأمي ، أشهد الله أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفا
قال مصعب : ولم ؟

فأجاب : لأنه قال فيك :

انما مصعب شهاب من اللـه

تجلت عن وجهه الظلماء

وأشدد بقية الأبيات (٢)

ومن ثم صمم الأمويون على أن يفرغوا لمصعب أول الأمر ، قبل أن
يفكروا في القضاء على رأس الزبيرين العائد بالحرم
وقد طالعت المعركة بين عبد الملك بن مروان ومصعب بين الزبير ، أعواما
ذات عدد قبل أن تصل الى نهاية حاسمة ، وتكررت محاولات عبد الملك ،
في الخروج الى العراق ثم الاياب الى الشام من غير أن يصل الى غريمه .
ففي الطبري (حوادث سنة ٧١) أن عبد الملك كان يخرج من دمشق
صيفا بعد صيف ، حتى « بطنان حبيب » ويخرج مصعب للقاءه فيعسكر
في « باجيرا » ويلبثان هكذا حتى يهجم الشتاء فيرجع كل منهما الى

(١) عيون الانباء : ١٠٣/٢

(٢) عيون الانباء : ١٠٣/٢ وانظر سمط اللالي للبكري ٢٩٤/٦

موضعه ، ثم يعودان في الصيف وهكذا ... (١)
 وهم عبد الملك ، في سنة ٧٠ هـ بقتال مصعب ، ثم اكتفى بأن وجه اليه
 جيشا - عليه خالد بن عبد الله - التقى بجيش لمصعب في البصرة ، ثم
 انتفى الى عبد الملك مهزوما ...

واذ ذاك صمم عبد الملك على ان يضع حدا لهذه المعركة التي طال
 حتى أضجرت ..

وخطب الناس في الشام ، ليسيروا معه الى مصعب
 قال له ناصحوه وقد أشفقوا عليه من لقاء مصعب : هلا أقمت هنا
 وبعثت على هذه الجيوش رجلا من أهل بيتك ، فان ظفروا فذاك ، وان
 لم يظفروا بعثت اليهم بالمدد

أجاب عبد الملك : انه لا يقوم بهذا الأمر الا قرشي نه رأى ، ولعلني
 أبعث من له شجاعة ولا رأى له ، واني أجد في نفسي بصرا بالحرب
 وشجاعة بالسيف ان ألجئت الى ذلك . ومصعب في بيت شجاعة ، أبوه
 أشجع قريش ، وهو شجاع لكنه يجب الخفض ، ومعه من يخالفه ومعى
 من ينصح لى (٢)

وانقض المجلس وقد عرف القوم أنه صمم على المسير الى مصعب
 ودعا بسلاحه فلبسه ، فلما ودع أهله وهم بالركوب ، قامت اليه
 زوجته « عاتكة بنت يزيد بن معاوية » فأعادت الرجاء والتوسل :

— يا أمير المؤمنين ، لو أقمت وبعثت اليه لكان الرأي
 فأجاب معتذرا ، مصمما : « ما الى ذلك من سبيل ! »
 فلم تزل تمشى معه وتكلمه حتى قرب من الباب ، فعلا نشيجها ،
 واذا ذاك رجع اليها عبد الملك فقال وهو يتجمل :
 — وأنت ممن يبكى ؟ قاتل الله « كثيرا » ! كأنه كان يرى يومنا هذا
 حيث يقول :

(١) تاريخ الطبرى : ١٨١/٧

(٢) تاريخ الطبرى : ١٨٥/٧

إذا ما أراد الغزو لم تثنِ همته
حصان عليها نظم در يزنيها
نهته فلمسا لم تر النهى عاقه
بكت فبكي مما شجاها قطينها

ثم عزم عليها بالسكوت (١)
وانطلق الى العراق حتى عسكر في « مسكن »
وسار له مصعب حتى عسكر في « باجيرا »
وكانت رسل عبد الملك قد سبقته الى الكوفة وغيرها ، وتسلمات الى
نفوس القوم هناك بالمال والأمانى
وشرط عليه رؤساء المروانية بالعراق ولاية اصبهان ، فوعدهم جميعا
بها ! (٢)
فما دنا اللقاء ، الا وعبد الملك قد ملأ يديه من أهل العراق ، وأيقن
مصعب أنهم خاذلوه ...

ولم يفكر مع ذلك في النكوص ...
وتهيأ للحرب ، ثم دخل على نسائه يودعهن ، فلما جاء دور سكينه ،
وجمت لحظة ، وقد طاف بخاطرها طائف من الأمس البعيد
وحملتها الذكرى الى كربلاء ، فساورها دوار منهك ، فبادر اليها
مصعب واعتنقها ، وثقلت عليه وطأة الموقف ، لولا أن لاح له في تلك
اللحظة ، طيف أبيها الامام الحسين ، فهتف بها مشجعا :

— ما ترك أبوك يا سكينه لابن حرة عذرا ...
ثم أفلتها من ذراعيه ، وأخذ طريقه الى الباب
فصاحت من خلفه : « وا حزنا عليك يا مصعب ! »
وفاجأته صيحتها ، فرجع اليها وسألها في لهفة وعجب :
— أكان كل هذا ان ، في قلبك ؟
أجابت : « بلى يا مصعب ، وما كنت أخفى أكثر ... »

(١) أمالي القالى — انظر سمط اللالى : ١٤/١ ، والاغانى : ٢١/٩ ساسى
(٢) تاريخ الطبرى : ١٨١/٧

فَرْنَا إِلَيْهَا مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَ فِي شَجْوٍ :
 — لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ، لَكَانَ لِي وَلَكُ يَا سَكِينَةُ شَأْنٌ آخَرُ ...
 وَمَضَى إِلَى الْمِيدَانِ وَهُوَ يَقُولُ :
 وَإِنِ الْأَلَى بِالطَّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
 تَأْسَوُا فَسَنُوا لِلْكَرَامِ التَّأْسِيَا !

مصراع بطل

وِظَلٌ يَرُدُّ الْبَيْتَ حَتَّى أَشْرَفَ عَلَى سَاحَةِ الْقِتَالِ ، فَإِذَا جُنْدُهُ مِنْ أَهْلِ
 الْكَوْفَةِ قَدْ نَكَصُوا عَنْهُ خَاذِلِينَ ، وَإِذَا عَبْدُ الْمَلِكِ هُنَاكَ فِي جَيْشٍ لِحَبِّ
 وَتَصَفَّحَ مَصْعَبٌ مِنْ بَقِي حَوْلِهِ ، يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَوَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى عُرْوَةِ
 ابْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ، فَنَادَاهُ : « يَا عُرْوَةُ ! »
 فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ سَأَلَهُ :

— أَخْبِرْنِي عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ، كَيْفَ صَنَعَ بِأَبَائِهِ النُّزُولَ عَلَى حَكَمِ
 « ابْنِ زِيَادٍ » وَعَزَمَهُ عَلَى الْحَرْبِ !؟ (١)
 هُنَاكَ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ مَصْعَبًا لَنْ يَرِيْمَ حَتَّى يَقْتُلَ ...
 وَتَقْدُمُ يَوَاجِهِ مَصِيرُهُ مُسْتَبْسِلًا
 فَبَعَثَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ مَعَ أَخِيهِ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ يَقُولُ : إِنْ ابْنُ عَمِّكَ
 يُعْطِيكَ الْأَمَانَ ..

أَجَابَ مِنْ فُورِهِ ، وَطَيفَ الْحُسَيْنِ يَمَلَأُ عَيْنِيهِ :
 — إِنْ مِثْلِي لَا يَنْصَرِفُ عَنْ مِثْلِ هَذَا الْمَوْقِفِ إِلَّا غَالِبًا أَوْ مَغْلُوبًا
 وَنَادَى مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ « عَيْسَى بْنُ مَصْعَبٍ » وَكَانَ مَلَا زِمَا أَبَاهُ :
 — يَا ابْنَ أَخِي ، لَا تَقْتُلْ نَفْسَكَ .. لَكَ الْأَمَانُ ..
 وَعَقِبَ مَصْعَبٌ ، دُونَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَلَدِهِ :

— قَدْ آمَنْتُكَ عَمَّكَ ، فَامْضِ إِلَيْهِ
 قَالَ عَيْسَى : « لَا تَتَحَدَّثْ نِسَاءَ قُرَيْشٍ إِنْ أَسْلَمْتِكَ لِلْقَتْلِ »

(١) تاريخ الطبري : ١٨٤/٧

فنظر اليه أبوه مليا ثم قال : « فتقدم بين يدي ، أحتسبك »
 فقاتل عيسى بين يدي أبيه حتى قتل (١)
 وأثنى مصعب بالرمي ، ثم شد عليه زائدة بن قدامة فطعنه وهو
 يصيح : يا لثارات المختار !
 ونزل اليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، فاحتز رأسه وحملها الى عبد
 الملك ..

قال عبد الملك وهو يطيل النظر الى وجه مصعب مضرجا بالدم :
 « متى تغزو قريش مثلك ؟ » (٢)
 ثم التفت الى من حوله فسألهم : « من أشجع الناس ؟ »
 فذكروا اسمه ، وأسماء عدد من الأبطال الشجعان ، لكنه أسكتهم
 بقوله : « أشجع الناس مصعب بن الزبير ، جمع بين عائشة بنت طلحة ،
 وسكينة بنت الحسين ... وولى العراقيين ، ثم زحف الى الحرب فبذلت
 له الأمان والحباء والولاية والعفو عما خلص في يده ، فأبى قبول ذلك ،
 واطرح كل ما كان مشغوفا به من ماله وأهله وراء ظهره ، وأقبل بسيفه
 قرما يقاتل ، ما بقى معه الا سبعة نفر ، حتى قتل كريما ... »
 وتجاوزت الآفاق ، ما بين العراق والحجاز ، بصدى من قول عبيد الله
 ابن قيس الرقيات يرثى مصعبا ويذكر خذلان من في العراق من بكر
 وتميم :

لقد أورث المِصرين خزيا وذلة
 قتيلا بدير الجاثليق مقيم
 فما نصحت الله بكر بن وائل
 ولا صبرت عند اللقاء تميم
 ولو كان بكريا تعطف حوله
 كسائب يغلى حميها ويدوم

(١) تاريخ الطبري : ١٨٦/٧
 (٢) تاريخ الطبري : ١٨٧/٧

ولكنه ضاع الدمام ولم يكن
بما مضى يومذاك كريم (١)

الارملة المقهورة

وفي قصر الامارة بالكوفة ، وقفت أرملته سكينه بنت سيد الشهداء ،
يكاد يتلفها القهر والغیظ

ولم يكن الحزن جديدا عليها ، فمن قبل مصعب بليت الحزن الأكبر يوم
كربلاء ، ومصعب قد لقي مصرعه النبيل مختارا ، ومات الميتة التي تليق
بفارس شهيم كريم مثله ...

انما كان غيظها من غدر الذين خانوه ، هو الذي يفرى كبدها !
ويجههم ! ما أفدح الذي لقيت سكينه منهم ! غدروا بجدها الامام ،
ثم أيتموها صغيرة ، ثم أرملوها شابة !

وانها مع ذلك لتتماسك حين وفد عليها المعزون من أهل الكوفة ،
يسألونها الصبر الجميل على قدر مصابها الجليل ، حتى اذا فرغوا مما
أرادوا أن يقولوه ، أدارت فيهم عينيها - وقد جف دمعهما - ثم قالت
في تودة :

« الله يعلم اني أبغضكم ! قتلتم جدى عليا وقتلتم أبى الحسين ، وزوجى
مصعبا فبأى وجه تلقونى ؟ أيتتمونى صغيرة وأرملتمونى كبيرة » (٢)
وانصرفت ...

خرجت من الكوفة ، ومن العراق ، وما تحمل الأرض أشقى منها ،
بالذى كان ، وما تظل السماء أدنى منها الى اليأس والزهد



هل ترك لها « مصعب » ذكرى حية من شخصه الراحل ؟

(١) تاريخ الطبرى : ١٨٧/٧
وانظر كلمة عبد الله بن الزبير فى مصعب لما بلغه نبأ مقتله فى : الطبرى ١٩٠/٧ وعيون
الانباء ٢٤٠/٢
(٢) عيون الانباء : ٦١٢/٢

في خبر بالأغانى ، انها ولدت من مصعب ابنة آية في الحسن ، أراد مصعب أن يسميها ربرب ، لكن سكينه سميتها « الرباب » باسم أمها (١) . فلما قتل مصعب ، ولى أخوه عروة أمرها ، فزوجها ابنه عثمان بن عروة ، فماتت وهي صغيرة .

ونقل صاحب الأغانى رواية عن سعيد بن صخر ، عن أمه سعيدة بنت عبد الله بن سالم ، ان السيدة سكينه لقينها بين مكة ومنى ، فاستوقفتها لتريها بنتها من مصعب ، واذا هي قد أثقلتها بالحلى واللؤلؤ ، وقالت :
— ما ألبست الدر الا لتفضحه

ثم أتبعها أبو الفرج ، برواية أخرى عن شعيب بن صخر عن أمه سعدة بنت عبد الله ، ان سكينه أرتها بنتها من الحزامى ، وقد أثقلتها بالحلى وقالت : والله ما ألبستها اياه الا لتفضحه (٢)
وهكذا ، ما بين فقرة وأخرى ، صار :

سعيد بن صخر ، شعيب بن صخر
وصارت سعيدة بنت عبد الله بن سالم ، سعدة بنت عبيد الله . كما
صارت بنت مصعب ، بنت الحزامى !
ولا مجال للاطمئنان الى خبر عبث به الرواة على هذا النحو ، لا سيما
وليس في مراجعنا الأخرى ما يشير الى انها ولدت من مصعب بنتا
وكان « المصعب الزبيرى » أولى بذكر هذه البنت في (نسب قريش)
لكنه لم يشر اليها ، وكذلك لم يشر اليها « الطبرى » ولا « ابن خلكان »
ولا « ابن حزم » في جمهرة الأنساب
ولكن « دائرة المعارف » ذكرت ان سكينه لما تزوجها مصعب « أنجبا
من هذا الزواج ابنة سميتها سكينه باسم أمها ، وتزوجت هذه الفتاة من
أخى مصعب ، وتوفيت في سن مبكرة »

ولم تذكر الدائرة مرجعها في هذا ، وأرجح أنها نقلته عن الأغانى ، مع
تحريف في النقل ، جعل بنت مصعب تتزوج من أخى مصعب ! ..

(١) نضيف ان ام مصعب كان اسمها كذلك الرباب : بنت أنيف بن عبيد ، من بنى جناب الكلبى (نسب قريش : ٢٣٦)
(٢) مثلها في ميون الاخبار : ٢٥/٤ ولم يذكر فيه اسم بنت سكينه

مع إبراهيم بن عبد الرحمن

عزلة لم تطل

ظنت ، وظن الناس من حولها ، أن ذلك آخر عهدا بدنياهم ، وأنها سوف تنطوى على يأسها في عزلة تجتر ما طفحت به كأسها من أحزان وأشجان ، حتى تلحق بالأعزاء الراحلين ...

وانصرف عنها متتبعو الأخبار ، وفي حسابهم أنها فرغت من الدنيا ، فما عاد لديها ما يلتبس من الأخبار ، وشغلوا بتلك الأخرى ، عائشة بنت طلحة ، وقد نزلت عنها ثوب الحداد على مصعب ، فتقدم إليها خطاب منهم بشر بن مروان الذي بعث إليها « عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي » (١) يخطبها له ، وهو يشفق أن تكون نائمة عليه أخونه لعبد الملك قاتل مصعب ، فلما حدثها عمر برغبة بشر ، قالت :

— أما وجد بشر ، رسولا الى ابنة عمك غيرك ؟ فأين بك عن نفسك ؟ سألتها في لهفة : أو تفعلين ؟

أجابت ضاحكة : نعم

فتزوجها من ليلته ، وعاد المجتمع يتلقى من أخبار علاقتها الزوجية بعمر ، وأسرار حياتها الخاصة معه

أجل شغل رواة الأخبار وصائدو الأسرار بتتبع عائشة بنت طلحة مع زوجها الثالث عمر ، ويئسوا من التماس جديد عند « سكينه »

حتى فوجئوا بالأرملة الهاشمية الحسناء ، تخرج عن عزلتها وتقبل على الدنيا مرة ثانية ، بوجه ضحك ومزاج مرح !

(١) مير فارس . انظر (جبهة اسباب العرب : ١٣٠)
(٢) الاعاني : ١٨٣/١١ ١٨٣/١١ وما بعدها . ط دار الكتب

وقيل فيما قيل ، ان حيويتها الفياضة وشبابها الذى اكتمل وقتئذ ونضج ، قد غلبا عوامل اليأس ودواعى القنوط ، فلم نستطع — وهى أنثى فى أوج نضجها ووفرة ثرائها وعزة جمالها وشرف موضعها — أن تنزوى طويلا فى عزلة عن الدنيا والناس

لكنى أكاد أطمئن الى أنها فى هذا الدور الجديد من حياتها ، كانت منطوية على يأس فادح ، بلغ فى أعماقها أقصى مداه ، فصار الى سخرية مريرة ، هى التى احتكمت فى الطور الثانى من حياتها ، احتكاما بلغ من قوته وعنفه ، أن اشتبه بضده ، والتبس عند الأكثرين بالرغبة فى انتهاب مسرات الحياة بعد الذى ذاقته من مر أحزانها

وهنا ، لا بد لنا من وقفة متأنية نسبر فيها أعماق هذه السيدة الشريفة ، واليتيمة الأرملة ، قبل أن تلقانا فى حياتها الجديدة على ما تصورنا لنا الاخبار والروايات ، مسرفة فى الاقبال على الدنيا بنفس متفتحة لم ينل منها حزن ولا ساورتها ذكرى المشاهد الأليمة التى مرت بها

أجل ، لابد من وقفة هنا متمهلة ، قبل أن تلقانا « سكىنة » فى أخبارها . تلك ، تملأ الأفق من حولها ضجيجا مرحا ، وتشارك فى الدنيا أعنف مشاركة ، وتخوض المجتمع طليقة منحررة

وقد تعجلت الرأى آنفا ، فقلت اننى أكاد أطمئن الى انها فى هذا الدور الجديد من حياتها كانت فى اقبالها على الدنيا منطوية على يأس . وليس ذلك لأننى أجرتها من أهواء البشرية ، وهى حفيذة الرسول البشر الذى ألح فى تقرير بشريته والاعتراف بها ، لكننا حين نحتكم الى سنن الفطرة وطبيعة الانسان ، ننكر أن تلاقى سيدة مثل الذى لاقت بنت الحسين من فوادح المحن وأرزاء الأيام والليالى ، ثم تستطيع — بحال ما — أن تنسى كل الذى لقيت ، ويصفو لها العيش هنيئا غير كدر !

بل انه لما يشبه المحال عندنا ، أن تقوى أنثى — بالغة ما بلغت ارادة الحياة عندها — أن تتسلخ من ماضيها كله ، وما العهد به بعيد ، وأن تنحى عنها أطياف من ملئوه فرحا وترحا ، لتبدأ صفحة جديدة لا ظل فيها .

من ذلك الماضي ، ولا صلة لها بهومومه وماسيه
وعلماء النفس قد اطمأنوا الى أن للنفس البشرية واعية تختزن كل
ما يمر بها من أحداث ، وتحفظ بها على تطاول العهد بها وبعد المدى ،
وتظل تؤثر في سلوكه مهما تقو ارادته على التخلص منها ، بل مهما يغلب
على يقينه أن الزمان قد عفى على آثارها فتاهت في غيابة النسيان ...
وما كان الذي لاقته بنت الحسين بالذي ينسى ، ولا كان الزمن قد
تراخى به منذ شهدت المذبحة المروعة في كربلاء في مستهل عام ٦١ هـ ثم
مصرع زوجها الحبيب النبيل ، مصعب بن الزبير ، بعد عشر سنوات ،
وهو يتأسى بالحسين ويقول لابنته : ما ترك أبوك لابن حرة عذرا ..
فهل شذت سكينه على الطبيعة البشرية ، وخرجت على المألوف من
المنطرة السوية ، بنسيانها كل ما كان ، واقبالها على الدنيا بنفس متفتحة
لا يلم بها طيف عزيز رحل ، ولا تعبرها ذكرى معاودة للذي فات ؟
كلا ، لم تشذ سكينه ، وانما الأقرب الى الاحتمال أنها ملت كبريات
المشاغل الى حد الزهد ، ويئست من دنياها الى حد الاغراق في الاستهانة
بها وعدم المبالاة !
وانها لمعدورة ، فمثل هذه الدنيا — كما بلتها سكينه — غير جديرة بأن
يؤسَى عليها ، بل انها لأهون على بنت الحسين من دمعة تسكب أو آهة
تلفظ !

ضجيج في الدار

وليس أدل على هوان الدنيا لديها بعد مصعب ، من الخبر اللافت الذي
نقله صاحب الأغاني معالاً به قبولها للزواج بعد تمنع ، قال (١) : « تنفست
يوماً بنانة — جارية سكينه — وتنهدت حتى كادت أضلاعها تنشق . فقالت
لها سكينه : مالك ؟ ويلك ! قالت : أحب أن أرى في الدار جلبة — تعنى
العرس

(١) الأغاني : ١٦٢/١٤ ساسي

« فدعت سكينه مولى لها تشق به ، وقالت له : اذهب الى ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، فقل له : ان الذى دفعناك عنه ، قد بدا لنا فيه . انت أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخطب سكينه »
وابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، من بنى الحارث بن زهرة بن كلاب (١)

وكان قد خطبها بعد مقتل مصعب ، فأنكرته وردته فى غير رفق ، وبعثت اليه قائلة :

— أبلغ من حمقك أن تبعث الى سكينه بنت الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تخطبها ؟

فأمسك ابراهيم عن ذلك ، حتى اذا جاءه رسولها أنها قد غيرت رأيها فيه ، أقبل والدنيا لا تسعه من فرحته ، فجمع نحو سبعين رجلا أو ثمانين من رجال زهرة وأعيان قريش ، وانجه بهم فى جمع حافل مشهود ، ساعيا الى على بن الحسين ، ليخطب اليه أخته سكينه .

وذاعت القصة فى المدينة والوفد لما يزل فى طريقه الى البيت الهاشمى ، فما كان خروج ابراهيم فى موكب كهذا عدته سبعون أو ثمانون رجلا — فيما أحصت الرواية — بالذى يمضى دون أن يلفت اليه الأنظار ويستشير الفضول . وعرف الناس أن ابراهيم ما جمع هذا الحشد الا لكى يلتقى به زين العابدين خاتبا سكينه . وبلغت الشائعة دور بنى هاشم فاسترابوا فيها أول الأمر ، وشق عليهم أن يصدقوا أن يجروا ابراهيم على خطبة الشريفة الهاشمية وليس لها كفا

فلما قيل لهم : بلى ، وانها لراضية به ! صاحوا فى غضب :

— هذه الحمقاء تريد أن تتزوج ابراهيم بن عبد الرحمن ؟
وتنادوا ، حتى اذا اجتمعوا قال قائلهم :

— لا يخرج منكم انسان الا ومعه عصا ! (٢)

وهناك عند بيت سكينه ، التقى الجمعان مغضبين ثائرين :

(١) نسب قريش : ٢٦٦
(٢) الاغانى : ١٦٢/١٤ ساسى

بنو هاشم وقد رأوا ابراهيم غير كفء لبنت الحسين
وبنو زهرة ، وقد أنكروا أن يهون ابراهيم عند بنى هاشم الى ذلك .
الحمد ، وانه لمن صميم الزهريين ، آل آمنة بنت وهب ، أم الرسول صلى
الله عليه وسلم !

وان أباه عبد الرحمن ، لصاحب الشورى عند الرسول ، وأحد
العشرة الذين شهد لهم عليه الصلاة والسلام بالجنة (١)

وان أمه « أم كلثوم بنت عقبة الأموية القرشية » لمن المهاجرات
المبايعات ، خرجت الى الرسول في هدنة الحديبية ، فطلبها أخوها الوليد
وعمارة ابنا عقبة - وكانا لا يزالان على الكفر - وقدا المدينة يستردانها
كشرط الحديبية (٢) ، فقالت في ضراعة :

- يا رسول الله ، صلى الله عليك ، أنردني الى الكفار ، فيستحلون
حرامى ويفتنونى عن دينى ؟

وأنزل الله عز وجل فيها :

« يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنحوهن ، الله .
أعلم بإيمانهن ، فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن الى الكفار ، لا هن .
حل لهن ، ولا هم يحلون لهن » (٣)
ولم يردها الرسول الى الكفار ...

خاطب مردود

وتشاح أفراد الفريقين ، وتضاربوا ، فأصيب منهم يومئذ أكثر من مائة .
انسان ، قبل أن ينفذ العراك ...
وصاح الهاشميون : أين سكينه ؟
فأنبئوا بموضعها ، وانطلقوا الى حيث كانت تتلقى أنباء المعركة التى .

(١) ابن حجر : الاصابة - رقم ١٥٧١ ونسب قريش ٢٦٥
(٢) كان مقتضى هذا الشرط على النبى لقريش : ان من جاءنا منكم رددناه اليكم . وارجع .
الى تاريخ الطبرى ، والاصابة ، ونسب قريش ١٤٥ ، ٢٦٦
(٣) سورة المتحنة اية « ١٠ »

شبتها ، في فضول المتفرج وسخرية العاثر !
 صاحوا بها : أبلغ بك الأمر أن تصنعى هذا ؟
 فالتفتت سكيئة الى مولاتها بنانة ، وسألتها ، وما نفارق الابتسامة
 فمها : « أى بنانة ، رأيت في الدار جلبة ؟ »
 أجابت وهي لا تكاد تجد صوتها من خوف وذعر :
 — أى والله ياسيدتى ، الا أنها شديدة ! (٢)
 وأبت « سكيئة » بعد ذلك أن تتزوج من ابراهيم ، حين ترك لها الخيار
 في الأمر .

على أن هناك رواية نقلتها دائرة المعارف عن طبقات ابن سعد — تقول
 انها عاشت مع ابراهيم الزهرى ثلاثة أشهر ، ثم طلقت منه بأمر هشام بن
 عبد الملك .

وقد عقت عليها الدائرة بقولها : « وهذا شيء بعيد الاحتمال » دون
 أن تحدد الشيء المشار اليه ، أو تذكر سببا يبعده عن الاحتمال . وأغلب
 الظن أن هذا هو طلاقها من ابراهيم بأمر هشام بن عبد الملك ! وانه فعلا
 شيء بعيد الاحتمال ان لم يكن أقرب الى المحال ! ذلك لأن هشام ولى
 الخلافة سنة ١٠٥ هـ وتوفى سنة ١٢٥ هـ عن ٥٤ سنة (٣) ، وقيل كان ابن
 ٥٥ سنة أو ٥٣ سنة وهما روايتان في الطبرى

أى أنه لم يكن قد ولد بعد حين قتل مصعب وترملت سكيئة ، اذا
 أخذنا بقول من قال بموته سنة ١٢٥ عن ٥٣ سنة
 أو كان رضيعا في السنة الأولى من عمره ، اذا أخذنا بأقصى الآجال في
 عمره ، أى ٥٥ سنة
 فأنى ، وكيف ، تدخل في مسألة زواج سكيئة من ابراهيم ، بعد أن
 قتل عنها مصعب !؟

ونعود الى حكاية خطبة ابراهيم لسكيئة بايعاز منها ، ثم رفضها
 الزواج منه بعد أن كان ما كان من عراك بين بنى هاشم وبنى زهرة ،

(٢) الاغانى : ١٦٢/١٤ ساسى

(٣) تاريخ الطبرى : ٢٨٣/٨ ، ٢٨٨ وأنظر معه شذرات الذهب : ١٦٣/١

فَنَسْأَلُ : « هل حدث هذا حقاً ؟ .. »

لست أستبعده ، ولكن بفرض انه لم يحدث ، فما من شك في ان الذين اخترعوا هذه القصة ، قد أغراهم بها ما عرفوا من ميل سكينه الى الدعابة ، وانها لدعابة قد يرى ناس فيها لونا من المرح ، على حين نراها دعابة مرة قاسية ، فهذه الشريفة الحسنة ، يخطبها من لا نراه كفتا لها ، فنرده بعبارة تنطق بزهوها واعتزازها بنسبها العالي ، ثم لا تكاد تسمع تنهد « بنانة » واشتياقها الى جنبه الفرح ، وضيقها بوجود البيت وسكونه ، حتى تثور في أعماقها ذكريات ما لقي آلهة الأكرمون من اضطهاد بشع ، وحتى تستحضر مصارع الشهداء من رجالها ، ومرأى أشلائهم مبعثرة على ساحة كربلاء ، لا يصد عنها سبع ولا وحش ! ؟ ماذا صنع النسب الطاهر العالي للزهراء وقد ماتت كمدا ، مضيفة الحق ، ولم يمض على وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم غير أشهر معدودات ! ؟ ماذا صنع النسب الشريف للحسن وقد لقي حتفه مسموما ؟ .. وللحسين وبنيه واخوته وبنى اخوته وبنى عمه ، وقد قتلوا جميعا في يوم واحد ، بسيوف قوم يدينون بدين محمد ، ويشهدون انه رسول الله ؟ .. وماذا صنعت المروءة لزوجها مصعب ، وقد خذله جنده ، وباعه أنصاره بثمان بخص ، دراهم معدودات ، ووعد عرقوبية كاذبة ؟ ..

فهل من عجب أن تهزأ سكينه ، بنت الشهيد ، وأرملة صريع الغدر ، بهذا المجتمع المنافق ، وتسخر بما تعارف عليه من قيم يقدها باللفظ ويخونها بالفعل ؟ .. وأى شيء هو أبلغ في الهزء بالنفاق الاجتماعي ، من أن تغرى بخطبتها من رده بالأمس خائبا مهانا ؟ .. أى شيء هو أبلغ في السخرية بالعرف السائد في مجتمع الأشراف من قریش ، من أن ترجع سكينه عن قرارها الأول ، لمجرد ارضاء رغبة عارضة من جاريتها « بنانة » في أن ترى في البيت جلبة عرس ؟ ! .. ثم تكون ، بنت الحسين وحفيدة الزهراء ، هي التي تبعث مولى لها الى ابراهيم بن عبد الرحمن ،

لتعلنه بما بدا لها في قبوله زوجها ، وتتنازل فتدعوه الى أن يمضي
فيخطبها ؟ ! ..

وجلست تتفرج على المشهد الذي ألقته ورسمت خطته وعينت مسرحه
واختارت أشخاصه ! ..

وطاب لها أن تصفى الى ضجيج المعركة الصغيرة بين الفريقين من آلها
وآل ابراهيم الزهرى ، والتي تمخضت عن مائة مشجوج ، وعن ضحية
أخرى فوق المائة ، أعنى الخاطب المسكين الذى باء بالخسر والهوان ؟ ! ..
وما تكون تلك الضحايا ، أمام عشرات الألوف من المسلمين الذين
قتلوا في معركة الفتنة الكبرى ، في مواقع الجمل ، وصفين ، و كربلاء ،
ومعارك التوابين والخوارج ، وصراع الأمويين ضد الهاشميين والزييريين
من بعدهم ؟ ..

بل ما تكون هذه الضحايا أمام مصرع الحسين وحده ، رضى الله عنه ؟ !
وأى شيء هذه الضجة ، بالقياس الى ضجة كربلاء ، أو الحرة ، أو موقعة
« مسكن » التى قتل فيها مصعب بن الزبير ، فتى قریش ؟ ..
الله .. الله ! .. لقد طابت الحياة لقریش بعد كل هذا الذى كان ، فلا
ضير عليهم فى أن يحتملوا مائة مشجوج ، نظير التفرج على مشهد آخر
فكه طريف ، من تأليف وإخراج بنت الامام الشهيد ، أرملة مصعب
ابن الزبير ! ..

أو لا ، فلتنصف هذه الخدوش الهينة ، الى رصيدها الضخم من صرعى
الفتنة ، وضحايا البغى والجشع ، والغدر ، والنفاق ...

مع الأصبع المرواني

وتتبع سكيئة اذ تمضى بها الحياة في الخضم الكبير ، بعد أن سكنت
الضجة التي ثارت بين بنى هاشم وبنى زهرة ، فاذا معالم الطريق تغمض
أمامنا وتتوه ، حتى ما ندرى أى طريق سلكت بنت الحسين ، بعد الذى
كان ...

موتى يبعثون

ثمة خبر يقول : ان « عبد الله بن مروان خطبها بعد مصعب ، فقالت
أمها : لا والله لا تتزوجه أبدا وقد قتل ابن أخى - تعنى مصعبا » (١)
ولا حاجة بنا الى توهين الخبر بأن عبد الله لم يقتل مصعبا ، وبأن
الأخوة المدعاة بين الرباب والزبير أبى مصعب فى قول الرباب « وقد قتل
ابن أخى » لا تعدو التقاء فى الجد الخامس لمصعب من ناحية أمه : الرباب
بنت أنيف بن عبيد بن مصاد بن حصن بن كعب بن عليم بن جناب
الكلبي (٢)

والجد الرابع لأم سكيئة من ناحية الأب : امرئ القيس بن عدى بن
أوس بن جابر بن كعب بن عليم (٣)

أجل ، لا حاجة بنا الى توهين الخبر بمثل هذا أو نحوه ، بل يكفى
أن نقول ان الرباب ، أم سكيئة ، ماتت فى أوائل سنة ٦٢ هـ حزنا على
زوجها الحسين ، بعد عام واحد من مصرعه فى كربلاء (٤) ، وغير معقول أن
تبعث من قبرها لتظهر على مسرح الأحداث بعد وفاتها بنحو عشر سنين ،
فترفض أن تتزوج بنتها سكيئة ، بعد مصعب ، من عبد الله بن مروان ..!

(١) الاغاني : ١٦٢/١٤ ساسى
(٢) نسب فريش : ٢٣٦ - وجمهرة أنساب العرب : ٤٢٧
(٣) نسب فريش : ٥٩ - وجمهرة أنساب العرب : ٤٢٧
(٤) ابن الاثير : الكامل ٧٣/٤

زواج لم يتم

ونفرغ كذلك على عجل من زواج آخر لم يتم ! ..
ذلك هو زواجها بالاصبح بن عبد العزيز بن مروان ، أخى عمر بن
عبد العزيز

قيل انه خطبها ، وأغلى لها المهر ، فقبلت بعد تردد وتمنع
كان وقتئذ واليا على مصر ، نعمة عبد الملك ، فلما استدعاها ، أبدت
خوفها من جو مصر ، فبنى لها مدينة سماها « الاصبح » وأرسل اليها
بالمدينة انه قد هيا لها أطيب مقام
وانتظر الرد ، فجاءه رد ، لكن ليس من سكيئة ، وانما من عمه عبد
الملك الذى كتب اليه يخيره بين احدى اثنتين : ولاية مصر ، أو الزواج
من بنت الحسين (١)

فاستجاب الاصبح لرغبة عمه عبد الملك ، وأرسل اليه بطلاقها ، قبل أن
يدخل بها

أما لماذا كره عبد الملك زواج ابن أخيه من بنت الحسين ، فتقول
رواية : « انه نفس عليه بها »

وتقول أخرى : انه غضب لكثرة ما أنفق الاصبح عليها من مال ،
فقال : ما تزوجها أخانا حتى تزوجها مالنا
والروايتان ، كلتاهما ، فى « الأغاني » ، واذا كان لنا أن نختار فالأولى
عندنا أولى

وبقى الاصبح فى مصر محزونا ...
وبقيت سكيئة حيث هى فى المدينة ، وقد متعها الاصبح حين طلقها ،
بعشرين ألف دينار

أما متى تمت هذه الخطبة ، فالقصة تشير الى أنها حدثت والاصبح
وال على مصر لعبد الملك بن مروان ، أى فى سنة ٧٥ هـ ...
ومن هنا ، أتينا بها - فى سياق الحديث عن حياة سكيئة الزوجية -

بعد ترمّلها من مصعب

ولم نلتفت الى ما تقلته دائرة المعارف ، من زواج الاصبع بها ، بعد من سمته الزبير - وصحته : زيد - بن عمرو بن عثمان بن عفان ، الذي أجمع ابن خلكان في الوفيات ، وابن العماد في الشذرات ، واحدى روايات الأغاني ، على أنه طلقها في خلافة سليمان بن عبد الملك ، وقد كانت خلافة سليمان من سنة ٩٦ الى سنة ٩٩ هـ ، على حين كانت الخطبة سنة ٧٥ ، في عهد عبد الملك ، والاصبع وال على مصر (١) كذلك لم نلتفت الى روايتين في الأغاني ، وضعتا خطبة الاصبع اياها قبل زواجها من مصعب الذي قتل عام ٧١ هـ !
أما غياب الحديث عن هذه الخطبة في (نسب قريش) وفي (الجهرة) فمن السهل أن نعلله بعدم اتمام الزواج

(١) تاريخ الطبرى : ١٠٢/٧ ، ١٢٦

مع عبد الله بن عثمان الخزامي

هدنة مع الايام

فمن بعد الاصبغ ؟ ..
لعل عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، هو أول من
خطبها ، وتم زواجهما ، بعد أن ترملت من مصعب
على هذا اتفقت رواية « نسب فريش » التي نصت على أنه الذي خلف
عليها بعد مصعب (١)

وكذلك ابن خلكان في الوفيات
وابن العماد الحنبلي في الشذرات
وهي أيضا رواية ابن سعد في الطبقات وقد نقلتها عنه « دائرة المعارف »
بان كانت أضافت الى اسم عبد الله بن عثمان ، انه ابن أخي مصعب
والصحيح انه ابن أخته ، لأمه وأبيه ، رملة بنت الزبير بن العوام (٢)
أما أبوه عثمان ، فكان من سادات قريش وأشرفها ، وكان مع عبد الله
ابن الزبير بحكة ، فقتل في الحصار الأول - الذي قام به جيش يزيد قبل
موته سنة ٦٥ هـ - وله يقول أبو دهب الجمحي :

ونعم ابن أخت القوم « عثمان » في الوغى
إذا الحرب أبدت نابها وهي تكلح
هو التارك المال النفيس حمية
وللموت من بعد المعيشة أروح

(١) نسب فريش : ٢٣٣ وانظر جمهرة أنساب العرب : ١١٢
(٢) نسب فريش : ٢٣٣ وانظر جمهرة أنساب العرب : ١١٢

وجاد بنفس لا يجاد بمثلها

لها ، لو أقرت غزية ، متزحزح (١)
ورحب بنو هاشم بالزواج هذه المرة ، ورددت مجامع قريش ، قصيدة
أخرى لأبى دهب الجمحي ، بارك فيها هذه الصلة بين سليله النبي صلى
الله عليه وسلم ، وبين حفيد الزبير بن العوام ، وسليل حكيم بن خويلد
الأسدي ، ابن أخي خديجة أم المؤمنين . وفي هذه القصيدة يقول
الجمحي :

قضت وطرا من أهل مكة ناقتي
سوى أملى في الماجد ابن حزام
تمطت به بيضاء ، فرع ، نجبية
هجان ، وبعض الوالدات غرام
جميل المحيا من قريش كأنه
هلال بدا من سدفه وظلام
فأكرم بنسل منك بين محمد
وبين علي ، فاسمعن كلامي
وبين حكيم والزبير فلن ترى
لهم شبا في منجد وتهام (٢)

زواج منمر

ويبدو أن الحياة قد اطمأنت ببنت الحسين في كنف هذا الزوج الماجد
الكريم ، وأمهلها الزمن بضع سنين ، ذاقته خلالها طعم الاستقرار والدعة ،
وعكفت على تربية صغارها الذين كانوا ثمرة هذا الزواج المبارك بين
فرعين من أعز فروع قريش ، وهم : (٣)

(١) نسب قريش : ٢٢٣ - وارجع إلى شعر الجمحي في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية

سنة ١٩١٠

(٢) نسب قريش : ٢٢٣

والأبيات في (ديوان أبى دهب الجمحي) مع بعض اختلاف في الترتيب

(٣) نسب قريش : ٢٢٣

عثمان بن عبد الله ، وقد لقبه أبوه « قرينا » وفي ولده كانت البقية
من نسل بنت الحسين
وحكيم بن عبد الله

وربيعة بنت عبد الله ، التي تزوجها العباس أكبر أبناء الوليد بن
عبد الملك ، وصاحب الغزوات الظافرة المشهورة في بلاد الروم (١)
ولعل ربيعة هذه ، هي الفتاة التي كانت أمها سكيئة تلبسها الدر
لتتضح ، والتي خلطت الرواية فنسبها الى مصعب بن الزبير

وربما حاولت سكيئة في تلك الفترة من حياتها ، أن تسدل على أحزان
صباها ستارا من التشاغل والتناسى ، وعاد الاخباريون فانصرفوا عنها ،
اذ هي مطمئنة في حياتها الزوجية ، بعيدة عن أضواء المجتمع
ثم مات زوجها عبد الله بن عثمان .. وترملت مرة أخرى ...

ويبدو أن وقع المصاب كان شديدا عليها ، وانه نكأ في أعماقها الجرح
القديم الذي ما التأم مرة الا ليعود فيدمى من جديد ...
ولعلها في تلك الفترة ، سعت الى البيت العتيق في حجتها المشهورة
التي التقت فيها بضررتها السابقة : عائشة بنت طلحة ...

وأبى متصيدو الأخبار أن يفلتوا هذه الفرصة ، بل أسرعوا فجاءوا
بغادتي قريش الحسنائين ، في مشهد من مشاهد التنافس والتحدى ...
وان لم يكن « مصعب بن الزبير » هو موضوع تنافسهما في هذا
المشهد الذي وصفه الراوى فقال : دخلت عائشة بنت طلحة على الوليد
ابن عبد الملك وهو بمكة فقالت : يا أمير المؤمنين ، مر لى بأعوان .
فضم اليها قوما يكونون معها فحجبت ، ومعها ستون بغلا عليها الهودج
والرحائل ، وحجت في ذلك العام أيضا سكيئة بنت الحسين رضى الله
عنه ، فقال حادى عائشة :

عائش يا ذات البغال الستين لازلت ماعشت ، كذا تحجين

(١) تاريخ الطبرى : حوادث السنوات ٩٣ : ٩٥ هـ

فشق ذلك على سكينه ، ورد حاديها :
عائش هذه ضرة تشكوك لولا أبوها ما اهتدى أبوك
« فأمرت عائشة حاديها أن يكف فكف » (١)
ونرجح أن ذلك قد كان في سنة ٩١ هـ ، لأنها السنة التي حج بالناس
فيها ، الوليد بن عبد الملك (٢)

(١) الاغانى : ١٨٨/١١ دار الكتب . وانظر الخبر وتعليق الامام السبكي عليه في (طبقات الشافعية الكبرى ١٦٦/١ ط مصر)
(٢) ص تاريخ الطبرى : ٨١/٨

مع زبيد بن عمر العثماني

شروط عجيبة

رجعت « سكيئة » الى المدينة في أخريات ذى الحجة من ذلك العام (٩١ هـ) أرملة كهلة ، ينزف الجرح في أعماقها دما ، وقد طفح كأسها بالشجن المر والأسى الفادح ...

وجاء خاطب جديد ، ليكشف عن ضجرها الذي جاوز المدى ! ..
جاء زيد بن عمر بن عثمان بن عفان ، (١) يسألها أن تقبله زوجا على أى شرط تشاء ...

ولم تشأ أن يتم هذا الزواج على مألوف عادة القوم ، بل اشتطت في شروط لها ، ما نراها - لو صح الخبر - الا مظهر يأس عميق ، وان بدت في شكل دعاية ساخرة
كانت شروطها ثلاثة :

أولها : ألا يمس امرأة سواها ..

والثاني : ألا يحول بينها وبين شيء من ماله ..

والثالث : ألا يمنعها مخرجا تريده (٢)

فان أدخل بأحد هذه الشروط فهي منه خلية ! ..

وقد يبدو الشرط الأول غريبا من سكيئة حفيذة نبي الاسلام الذي أباح تعدد الزوجات . وكان تعدد الزوجات في بيتها هو العرف المتبع والشائع ، وقد تزوجت سكيئة - وهي في ربيعها العشرين - من مصعب ،

(١) في اسم أبي زيد وهم ، لعل سببه أن عثمان بن عفان له ولدان : عمر ، وعمر . وقد ورد اسم زيد بن عمرو ، في الوقيات والشدرات والاغاني والدائرة ، وكذلك ورد مرة في نسب قريش (٥٩) على أنه عاد فذكر زيدا بين ولد عمر . وهو في الجمهرة أيضا ابن عمر ، وقد رجحناه بعد طول مقابلة للروايات ، وتتبع لسياق النسب لولد عثمان
(٢) في الاغاني (١٦٣/١٤) شروط أخرى بجانب هذه التي ذكرناها

وعنده عائشة بنت طلحة ، وفاطمة بنت عبد الله الأسدي وأمها أولاد شتى (١)

ثم تأتي ، وقد جاوزت — الأربعين من عمرها — فتشترط على زيد العثماني ألا يمس امرأة سواها ...

لكن الشرط ، على ما يبدو من غرابته ، جائز شرعا . فللمرأة أن تشترط على زوجها ألا يتزوج عليها .

والشرط الثاني أعجب : فزيد هذا « أبخل قرشي » فيما قالوا ، وقد رووا في بخله أعاجيب يكاد المرء لغرابتها أن يتهمها بالوضع ، ولكنها على فرض وضعها ، ذات دلالة على رأى القوم في زيد ، وفي بخله (٢) وتأتي سكينه ، فتشترط على زيد هذا الذي كان يأبى أن يشركه ضيف في طعام ، ألا يحول بينها وبين شيء من ماله ، والا فهي منه خلية ! .. وليس شرطها الثالث بأقل من هذين غرابة ، فما ألف المجتمع القرشي ، في جاهلية أو اسلام ، أن تشترط زوجة على زوجها ألا يمنعها مخرجا نريده ! ..

أى مخرج ؟ ..

هكذا على التنكير والتعميم ، دون تحديد أو تعيين ؟ ..

وزيد حفيد خليفة ، ومن بيت هو في الصميم من قریش (٣)

وسكينه ، أخت الامام ، وبنت الامام ، وسليمة النبوة ! ..

فماذا تركت لزوجها بعد كل هاتيك الشروط ؟ .

لو أنها اشترطت على زوجها أن تكون العصمة بيدها ، ثم تحللت من عقد النكاح ، لسبب أو لآخر — أو حتى لغير سبب — لما خرجت في ذلك على عرف القوم وتقليد الجماعة ، أما أن تنص صراحة على انه « ان مس امرأة سواها ، أو حال بينها وبين شيء — أى شيء ! — من ماله ، أو منعها مخرجا — أى مخرج ! — تريده ، فهي منه خلية » فذلك — ان

(١) نسب قریش : ٢٤٩ — وجمهرة انساب العرب : ١١٢

(٢) الاغانى : ١٦٤/١٤

(٣) انظر نسبه في « نسب قریش : ١٢٠ » و « جمهرة انساب العرب : ٧٨ »

صح - هو الهزء بالمجتمع القرشى الذى أنكرت سكينة من حاله ما
أنكرت ، وضافت بما شاع فيه من غدر ونفاق ، وقتل النفس - وعشرات
الألوف منها - التى حرم الله الا بالحق ! ..
ألا ما أفدح الأثر الذى تركته محنة آل البيت فى نفس هذه الأتشي
الذكية الشاعرة بذاتها ! ..

ويقال انها مرحة عابثة ، وقد نسيت كل الذى كان ، وأقبلت تسنبدل
زوجا بزواج ، وكأن لم يعد يشغلها سوى متاع الدنيا ؟ ! ..
كلا ...

ان الجرح كان من عمق الغور بحيث لا يرى من قرب ، ولو كان
سطحيا لما خفى ! ..

وهذه هى ، بعد أن احتست الأتراح والأشجان كأسا اثر كأس ، تأبى
أن تعترف بأعراف وتقاليدها ، لمجتمع يأكل بعضه بعضا ، ويلغ فى دماء آل
محمد ، ولما يبل قميصه عليه الصلاة والسلام
لقد صارت هذه الأعراف والتقاليد عند الهاشمية الحسنة ، عملة
زائفة لا تساوى مجرد الالتفات إليها ! ..

فمن شاء أن يتزوجها ، وليكن زيد بن عمر بن عثمان بن عفان ،
فليقبل أن تفرض عليه من الشروط ما لم تفرضه أتشي على زوج ! ..
ليقبل أن ينزل لها عن حرته ولو كان سيذا وابن سيد وسليل سادة ..
وعن ماله ، ولو كان أبخل قرشى ..

وعن مهابته ، ولو كان ابن عم الخليفة ، وحفيد ذى النورين أمير
المؤمنين عثمان بن عفان ! ..

ووجه المجتمع القرشى وهو يرى زيدا يقبل ، ويتزوج سكينة على
شروطها ! ..

أبخل قرشى

ووجد الاخباريون فى زواج « أبخل قرشى » من الهاشمية الكريمة ،
المثذلة للمال ، مادة سمر ، ونوادر ، وأقاصيص ...

فهم يحكون من نواذر اهانتها للمال ، انها رؤيت مرة ترمى الجمار ، فسقطت من يدها الحصاة السابعة ، فنزعت خاتما ثميناً من اصبعها ورمته به ، بدل الحصاة (١)

ويحكون من نواذر بخل زيد ، انه خرج حاجا وخرجت معه سكينه ومعها خمسة أجمال محملة بأصناف الطعام ، فكلما بلغ الركب منزلا ، أمرت السيدة الهاشمية بالطعام وأعدت الأطباق ، فجاء بعض القوم يسلمون على « زيد » فوضع يده على خاصرته فجأة وصاح منوجعا : « أوه خاصرته !.. باسم الله ارفعوا الطعام وهاتوا الترياق والماء الحار.. » فإذا انصرفوا ، طلب الطعام ...

وحدث مرة ، وهم في السيالة ، أن جاء أغيلمة الأنصار للتحية ، والطعام معد . فأمر زيد برفعه متعللا بالألم الطارئ ! يقول أشعب ، وكان يومئذ في الركب :

« ولبشنا حتى انصرفوا ، ودخلنا ، وقد هلكت جوعا قلم آكل الا مما اشترينته من السوق من مائة دينار أعطتني اياها السيدة سكينه ، فلما كان الغد أصبحت وبى من الجوع ما الله به عليم ، ودعا زيد بالطعام ، فأمر باسخانه ، وجاءته مشيخة من قریش يسلمون عليه ، فلما رأيهم اعتل بخاصرته ودعا بالترياق ، والماء الحار ، ورفع الطعام . فلما ذهبوا ، أمر باعادته فجىء به وقد برد . فقال لى : يا أشعب ، هل الى اسخان هذا الدجاج سبيل ؟.. فقلت له : اخبرنى عن دجاجك هذا ، أهو من آل فرعون فهو يعرض على النار غدوا وعشيا ؟ » (٢)

تجربة فاشلة

ولم يكن من المنتظر ولا المرجو ، أن تسعد سكينه — بعد أن أثقلتها أعباء الأيام والليالى ، وأثخنتها الجراح — بزواج كهذا ، بل لعلها لم تكن راغبة فيه حريصة عليه ، وانما هى تجربة جديدة ، لم تر بأسا

(١) الاغانى : ١٦٥/١٤
(٢) الاغانى : ١٦٥/١٤ ساسى

في معاناتها ، وليكن بعد ذلك ما يكون ...

والأخبار عن حياتها الزوجية مع زيد العثماني ، بصورها قلقة منعصمة ، وقد كثرت بينهما المغاضبة وطالت في إحدى المرات حتى بلغت سبعة أشهر . والظاهر أن زيدا تملل من القيود التي ألجمته بها زوجته ، فحاول مرة أن يتحلل من أحدها .. حدثت أشعب : « حج سليمان بن عبد الملك وهو خليفة ، فاستأذن زيد بن عمر سكيئة في الخروج معه ، وأعلمها أنها أول سنة حج فيها الخليفة وأنه لا يمكن التخلف عن الحج معه . وكانت لزيد ضيعة قرب المدينة يقال لها العرج ، وله فيها جوار حسان . فأعلمته سكيئة أنها لا تأذن له إلا أن يخرج أشعب معه فيكون عينا لها عليه ، ومانعا له من العدول الى العرج والاتصال بجواريه في روحته أو رجعتة » . فقبل زيد .. وحج سليمان وانصرف من حجه ولم يسلك طريق المدينة ، وانصرف زيد يريد المدينة ، فنزل على ماء لبنى عامر بن صعصعة ، ودعا أشعب ، وقدم اليه صرة فيها ٤٠٠ دينار — وكان سليمان قد أجزل لزيد العطاء — وأعلمه أنه ليس بينه وبين العرج إلا أميال ، وإن الدنانير له اذا هو أذن له في المسير الى العرج ولقاء جواريه هناك ، ثم يوافيه بغلس وقت ارتحال الناس ..

فأذن له أشعب ، وأقسم له أنه سوف يحلف لسيدته بالإيمان المخرجة ، أن زيدا ما صار الى العرج ولا اتخذ ارية لنفسه منذ فارق سكيئة الى أن رجع اليها ...

وآب الحجيج الى المدينة ، فابتدرت سكيئة زوجها تسأله عن خبره . فقال وهو ينظر الى أشعب :

— يا بنت رسول الله ، وما سؤالك اياي ولم يزل ثقتك ممي ، وهو أمين عليّ ، فسليه عن خبري يصدقك ...

فسألت أشعب ، فأخبرها أنه لم ينكر عليه شيئا ولم يمكنه من اتخاذ جارية ، ولم يطلق له الاجتياز الى العرج

فلما استخلفته على ذلك ، مضى يحلف لها بالآيمان المحرجة ، حتى جزع « زيد » نفسه ، فوثب دونه ووقف بين يدي سكيئة يقول في ضراعة التائب وتوسل المقر بذنبه :

— والله يا بنت رسول الله لقد كذبتك العليج !.. جزت بالعرج فأقمت هناك يوما وليلة ، واتصلت بعدة من جوارى ، وهأنا ذا تائب الى الله مما كان منى ، وقد جعلت توبتى منهن ، أن أحملهن اليك عشية هذا اليوم ، فبيعهن واطلاقهن اليك ، وأنت أعلم بما ترين فى العبد السوء —
بمعنى أشعب «



آية زوجية هذه التى يصور لنا الرواة فيها زيد بن عمر بن عثمان ، لا يتحرك — ولو للحج ، ومع أمير المؤمنين — الا أن تأذن له زوجته ، وبشرط أن يرافقه تابع من قبلها يكون عينا لها عليه ؟ ! ..
ثم تصويره وهو يحتال للعدول الى ضيعته وجواريه ، فلا يجد بدا الا أن يثذل نفسه بالاستئذان من مولى سكيئة ، وأن يثذل غالى ماله بدفع أربعمئة دينار لأشعب ثمنا لسكوته وتستره عليه ، بايمان كاذبة ؟
ثم هذا الموقف الذى وقفه بين يدي زوجته — كنص عبارة الراوى — ضارعا مقرا بذنبه ، تائبا الى الله ، وجاعلا كفارة الذنب ، جواريه جميعا بحضرهن الى سكيئة ، ويدع لها حرية التصرف فيهن بيعا وعتقا ؟ ! ..
وتضيف الحكاية أن « سكيئة » لم تقبل توبة زوجها « زيد » ، ولا توبة عبد السوء « أشعب » ...

أما أشعب فجعلته مثلة : أمرته بأن يحضر الدنانير الأربعمئة التى تقاضاها ثمنا لخيانة ثقتها فيه ، وبعثت من ابتاع لها خشبا بثلاثمئة دينار ، واستدعت نجارين صنعوا من هذا الخشب صندوق تفريخ للبيض ، ودفعت لهم أجرهم من المائة دينار الباقية ، بعد أن اشترت ببعضها بيضا وتبنا ! ..

وأقسمت بحق جدها — صلى الله عليه وسلم — أن يحضن أشعب

هذا البيض حتى يفسس ...

وفعل المسكين : رقد على البيض حاضنا ، حتى خرجت الفراريح في
ساحة بيت سكيئة ، فكانت تنسبها اليه وتقول : بنات أشعب ! ؟ .. (١)
وأما زيد بن عر بن عثمان ، فذهبت تستعدي عليه عمر بن عبد
العزیز . والى المدينة لسليمان بن عبد الملك ...

تقول الرواية : فبعث عمر الى زيد فأحضره ، وأمر « ابن أبى الجهم
النفقيه » (٢) أن ينظر بينهما . وندب رجلين ليشهدا قضاءه
وجاء زيد وحده الى مجلس الحكم

أما سكيئة فجاءت في موكب من جواريتها يحملن الوسائد والفرش .
فلما أذن لها ابن أبى الجهم بالدخول وحدها ، أبت أن تدخل الا
ومعها ولأئدها ، ثم أمرتهن ففرشن لها وسادة ، وهيان متكئا ، وجلست ،
وزيد منكمش قد لصق بمقعد القاضى « حتى كاد يدخل في جوفه خوفا
منها »

قال ابن أبى الجهم : يا ابنة الحسين ، ان الله يجب القصد في كل شىء !
فردت عليه : وما أنكرت منى ؟ .. وانى والله واياك كالذى يرى
التسعة في عين واحد ، ولا يرى الحشبة في عين صاحبه
قال وقد أثاره ردها : أما والله لو لم تكونى سكيئة بنت الحسين ،
لسطوت بك ! ..

وطال بينهما الأخذ والرد ، حتى قال أحد شاهدى المجلس :
— يا أبا بكر ، ما لهذا جئنا ، ولا بهذا أمرنا ، فانظر القضية ولا
تتأتم ..

واذ ذاك التفتت سكيئة الى مولاة لها وسألتها :
من هذا الرجل ؟ ..

قيل : هو أبو بكر بن عبد الله بن أبى الجهم ..
فصاحت به : لا أراك ههنا وأنا أشتم بحضرتك ! ..

(١) الاغانى : ١٦٠/١٤ ، ١٦١ ساسى
(٢) أبوبكر بن عبد الله بن أبى الجهم . انظره في «جمهرة انساب العرب ص ١٤٧ »

ثم هتفت : يا لرجال هاشم وفريش ! ..
 فاعتذر لها من بالمجلس ..
 وتكلم زيد ، فأبدى خضوعه لها ..
 قالت : ما أعرفنى بك يا زيد !.. والله لا ترانى أبدا !.. أترالـه تمكث
 مع جواريك ثم أعود اليك ! ..
 ونطق القاضى بحكمه : ان جاءت سكيـنة بيـينة على دعواها ، والا
 فاليمين على زيد ...

فكان جوابها أن التفتت الى زيد وقالت :
 — يا أبا عثمان ، تزود منى بنظرة ، فلن ترانى والله بعد الليلة أبدا ...
 والقاضى صامت لا يتكلم ...
 وانقض المجلس ، وقد أدبر النهار وجاء الليل ...
 وكانت ليلة شاتية ، غائبة النجم ...
 قال أبو بكر بن عبد الله ، يتم القصة :
 « وخرجنا فجئنا عمر بن عبد العزيز ، فألفيناه ينتظرنا فى وسط الدار،
 فى تلك الليلة الشاتية ، فسألنا عن الخبر ، فأخبرناه ، فجعل يضحك حتى
 أمسك بطنه !.. ثم دعا زيدا من غد ، فأحلفه ورد سكيـنة عليه » (١)

ولكنها رجعة لم تطل ...
 عادت « سكيـنة » تشق على زيد ، وترهقه من أمره عسرا ، حتى
 « كانت — فيما تحدث الأخبار — تقول له : يا عثمانى ، اخرج بنا الى
 مكة ، فاذا خرج بها فسارت يوما أو يومين ، قالت : ارجع بنا الى
 المدينة ، فاذا رجع يومه ذلك قالت : اخرج بنا الى مكة ! » (٢)
 ثم استعدت عليه « سليمان بن عبد الملك » فقال لزيد : « اعلم انك
 قد شرطت لها شروطا لم تف بها ، فطلقها ... »

(١) الاغانى : ١٦٤/١٤ ساسى
 (٢) الاغانى : ١٦٣/١٤ ساسى

وطلقها زيد بأمر الخليفة سليمان بن عبد الملك (١)
 وآب الى دنياه ، يحصى خسائره في تلك الصفقة ...
 وضحكت المدينة كلها ، وهي تحصى معه كم أنفق من مال ، وكم احتمل
 من نصب واذلال ، ليرجع آخر الأمر صفر اليدين من سكينه ...
 وضحكت سكينه على هذا المجمع الذي يضحك ، وحق له البكاء ...
 على أن هناك رواية ، انفرد بها أبو عبد الله المصعب الزبيري ، في خاتمة
 هذا الزواج

فلقد ذكر في (نسب قريش) : ان زيدا العثماني هلك عنها فورثته (٢)
 وذكر معه ، أن لزيد أولادا من أم ولد ، انقضوا جميعا : قتل منهم
 ثلاثة ، مع من قتل من بنى أمية ، زمان « مروان بن محمد » آخر خلفائها .
 على حين أجمع ابن خلكان ، وأبو الفرج الاصبهاني ، وابن العماد
 الحنبلي ، على طلاقها منه بأمر الخليفة سليمان بن عبد الملك
 والأمر — بعد — غير مستغرب من تناقض الروايات وتضارب الأخبار
 بل ان التوفيق هنا بين الروايتين غير متعذر ، فربما يكون زيد قد طلق
 سكينه بأمر سليمان بن عبد الملك ، ثم مات وهي في عدتها ، فورثته !

هكذا قالوا

وانما الذي لا يهون تعليله وفهمه ، هو القول بأنها تزوجت — بعد
 زيد — بعمر بن حكيم بن حزام ..
 ذكرت ذلك احدي روايات الأغاني ، وان اختلفت في دوره : أكان بعد
 زيد أم قبله ..

وذكرته دائرة المعارف في ترجمة سكينه — نقلا عن زيادة لابن قتيبة
 في (المعارف) — وان يكن اسمه قد ورد فيها « عمرو بن حاكم بن
 حزام »

(١) وفيات الأعيان : ٢٩٨/١ وشذرات الذهب : ١٥٤/١
 (٢) ص ١٢٠ ط الدخائر

ولعل الاسم ترجم خطأ عن الأصل الانجليزي ، وكان سبب الخطأ ،
تشابه رسم حكيم وحاكم فيها : HAKIM
وعمرو هذا ، أو عمر ، هو أخ جلد عبدالله بن عثمان بن عبدالله بن
حكيم بن حزام ، زوجها بعد مصعب !
ولا ندري كيف أدرك سكينه ، الا أن يصح في حساب هؤلاء ، أن
تتزوج من رجلين بينهما ثلاثة أجيال ! (١)

أما المصادر الأخرى — وأذكر منها نسب قريش ، وجمهرة أنساب العرب
ووفيات الأعيان ، وشذرات الذهب ، وكل المصادر الشيعية الحديثة التي
قرأتها — فلم تشر الى هذا الزواج بكلمة

وقد تتبع أخبار زوجات بنى حكيم بن حزام في نسب قريش ، فلم
أر لسكينه ذكرا الا في زواجها من عبدالله بن عثمان بن عبدالله بن حكيم
ابن حزام ، الذي ولدت له عثمان « قرينا » وحاكما وريجة ... (٢)
وصاحب نسب قريش ، هو أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب
الزبيرى ، الذى يلتقى نسبه مع نسب بنى حكيم بن حزام ، عند خويلد
الأسدى ، جد الزبير بن العوام ومصعب ، وجد حكيم بن حزام ..
وقد أحصى نسب قريش ، دون أن يشير الى هذا الزواج بين حفيدة
عمته خديجة ، وزوجة عمه مصعب ، وبين الجد عمر بن حكيم بن حزام
ابن خويلد !
وكذلك لم يشر الى الفتاة التى زعمت رواية الأغاني ، أنها كانت ثمرة
هذا الزواج ! !

أفندع اذن حياة سكينه الزوجية لنمضى الى جديد من أمرها ؟
كلا .. فما زال هناك ما يقال

ان الشيعة — كما ذكرنا في مطلع هذا الفصل — يرفضون الاعتراف
بهذه الزيجات المتعاقبة ، ولا يقبلون منها غير ما ذكروه من زواجها بابن

(١) انظر مساق نسب ولد حزام بن خويلد في نسب قريش : ٢٣١، ٢٣٢ وفي الجمهرة « ١١٣ »
(٢) مثله في « جمهرة أنساب العرب : ١١٢ ذخائر »

عمها الحسن ، ثم بمصعب بن الزبير
وعذرهم واضح ، فما كانت هذه الأخبار في تناقضها وتناقضها
واختلافها ، بالتى تدعى الى شىء من ثقة وطمأنينة
وقد رأيناها زوجت سكينه من عبدالله بن عثمان بن عبدالله بن حكيم
ابن حزام ، ثم من عم أبيه : عمر بن حكيم !
وبعث الموتى من قبورهم بعد سنين ذوات عدد ، فجعلت الرباب أم
سكينه ، ترفض زواجها من عبدالله بن مروان ، بعد قتل مصعب !
وسبقت الزمن ، فجاءت على مسرح الأحداث بالأجنة فى بطون أمهاتهم ،
حين جعلت هشام بن عبد الملك ، الذى ولد بعد مقتل مصعب — أو كان
رضيعا فى عامه الأول — يتدخل فى حكاية ابراهيم بن عبد الرحمن ، مع
سكينه ، لما أراد زواجها بعد نزلها من مصعب بن الزبير !
فليس بالغريب أن يرفض الشيعة هذه المرويات جميعا ، وقد تعارضت
فتساقطت ، وكذب بعضها بعضا ، وجاوزت نطاق المعقول !



أما تعدد زيجات سكينه ، فليس فى ذاته بموضوع غرابة أو انكار ،
وان كانت « دائرة المعارف » نظرت الى هذه المسألة بعين مريضة ، وقالت
فى غمز : « واشتهرت سكينه بصفة خاصة بزيجاتها المتعاقبة » فخصت
بنت الحسين وسليمة النبوة ، بتعاقب الزيجات

وتجاهلت ما كان يقضى به العرف المتبع فى بيئة السيدة سكينه ، من
اسراع الخطا بآليها كلما خلت من زوج ، حرصا على شرف المصاهرة .
وما أحسب المستشرق « ماسيه » — كاتب مادة سكينه فى الدائرة — قد
جهل هذا العرف ، أو غاب عنه — وهو يغمز — أن عقائل قريش الكريزمات
قد شاركن سكينه فى هذا الذى زعم أنها اشتهرت به بصفة خاصة

وقد صح لدينا من أخبار زوجيتها ، انها تزوجت فعلا من ثلاثة ،
مصعب ، وعبد الله بن عثمان الحزامى ، وزيد بن عمر العثمانى : أما
الآخرون ، فلم يتم زواجها بأحد منهم ، فهل يقال ان « سكينه » ،

اشتهرت بزيجاتها المتعاقبة ، لأنها تزوجت ثلاث مرات ؟
من قبلها تزوجت جدتها السيدة خديجة أم المؤمنين ، باثنين من أشرف
قريش ، ثم تزوجت للمرة الثالثة من محمد بن عبدالله ، عليه الصلاة
والسلام

وتزوجت « أسماء بنت عميس الخثعمية » جعفر بن أبي طالب وولدت
له عبد الله ، صهر الامام على وابن عمه ، فلما استشهد جعفر في « مؤتة »
تزوجها أبو بكر الصديق فولدت له ابنه محمدا ، ثم خلف عليها من بعده
الامام على بن أبي طالب ، فولدت له ابنه يحيى الذى استشهد مع أخيه
الحسين في كربلاء

وعمة سكينه « أم كلثوم بنت على بن أبي طالب » تزوجها عمر بن
الخطاب رضى الله عنه فولدت له زيدا ، ثم خلف عليها عون بن جعفر بن
أبي طالب ، ثم تزوجها من بعده أخوه محمد بن جعفر ، فلما مات تزوجها
أخوه عبدالله بن جعفر بعد طلاقه لأختها (١)

وأم الحكم ، بنت عبد العزيز بن مروان - أخت الاصبع - تزوجها
الوليد ثم سليمان ، ثم هشام ، بنو عبد الملك بن مروان !
وعائشة بنت طلحة ، ضرة سكينه ، توفي عنها زوجها عبدالله بن عبد
الرحمن بن أبي بكر ، فتزوجها مصعب بن الزبير ، فلما قتل تزوجها عمر
ابن عبيد الله ، فلما تأممت بعده خطبها خاطبون ، لكنها ردتهم
وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، قتل عنها عبدالله بن أبي بكر
الصديق ، ثم تزوجت عمر بن الخطاب فقتل عنها ، فتزوجها الزبير بن
العوام .. (٢)

ومثلهن كثيرات ، من عقائل هاشميات وقرشيات ، لا أحصيهن عددا ..

(١) جمهرة أنساب العرب : ٢٣ ط الدخائر

(٢) نسب قريش : ٣٦٥

الفصل الثالث

في المجتمع

- شخصيتها الاجتماعية
- المجتمع في عصرها
- صورتها في هذا العصر
- عود على بدء
- كلمة يجب أن يقال
- الأدبية الناقدة

شخصيتها الاجتماعية

وأحسب أن الأوان قد آن بعد ذلك كله ، لنُدع هذا الجانب من حياة الشريفة الهاشمية الحسنة ، الى جاب آخر ، لم يكن أقل حظا من اهتمام الرواة ، وصناع الأخبار ، وناسجى القصص والحكايات ذلك هو مكانها فى الحياة الاجتماعية والأدبية لعصرها

والذين كتبوا عن هذه السيدة الكريمة ، لم يختلفوا فى أنها كانت الشخصية النسوية الأولى فى المجتمع الحجازى على أيامها ، ولو استعرنا أسلوب عصرنا ، لقلنا انها كانت - فيما تصور المرويات والأخبار - نجم المجتمع ، ولكننا نؤثر ألا نستعمل هذا المصطلح العصرى الذى ابتذل فى وصف نجوم الملامى وكواكب المحافل الساهرة ، فى حديثنا عن سليلة النبوة وبنت الامام الحسين . وانما حسبنا أن نقول انها منذ استقر بها المقام فى مدينة جدها الرسول ، استطاعت أن تنفرد بمكانة فى المجتمع لم ترق اليها سيدة سواها



والأنباء والمرويات عن حياتها الاجتماعية مثيرة ، وبعضها مما لا يسهل التسليم به ولا يهون تصويره مع حفيذة الزهراء رضى الله عنها ، لكننا اذا استبعدنا هذا كله - على ما سيرى القارئ بعد حين - بقى بعده ما يؤكد أنها كانت فعلا الشخصية الاجتماعية الأولى فى عصرها ، وذلك لما اجتمع لها من خلايا وسجايا ، جعلت لها جاذبية خاصة ، لم تتركها فيها سيدات العصر ، وفيهن حسان خلبن الألباب بجمالهن ، وشريفات فرشيات وهاشميات ، بعضهن من سيدات البيت النبوى الكريم والحق أن السيدة سكيئة ، كانت بادية الاعتزاز بنسبها العالى وشرفها

الرفيع . وكان خصومها وخصوم آلهـا ، يقرون لها بهذا الاعتزاز ويرونها أهـلا لأن تباهى به من تباهى فتسكته . وقد مر بنا كيف رد حاديهـا على حادى عائشة بنت طلحة ـ حين افتخر بجمالها الستين ـ بقوله :
عائش هذه ضرة تشكوك لولا أبوها ما اهتدى أبوك !
فأمرت عائشة حاديهـا أن يكف فكف !

وقد علق شيخ الاسلام « الامام تاج الدين السبكي » على هذا الموقف فقال بعد أن نقل الخبر :

« فلهـ درها ـ يعنى عائشة ـ حيث كفت فى موضع الانكفاف أدبا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد كان الأمر ـ والمفاخرة فى الدنيا ـ هزلا ، فقابلته سكينه بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جـدا ، فأفحمت خصمها وأقامت عليها الحجة ، فلهـ درها من مناظرة عرفت مواقع الجدل ، ودر عائشة من مذعنة للحق منقادة الى الصدق » (١)
وفى الأخبار ، أن سكينه شهدت يوما مأتما فيه بنت لعثمان بن عفان ، فقالت العثمانية : أنا بنت الشهيد . فأنكر المجلس أن تفخر بأبيها على مسمع من بنت سيد الشهداء ، على حين أمسكت « سكينه » صامته لا تعلق ، الى أن أذن المؤذن من مسجد الرسول للصلاة ، فلما بانق قوله : « أشهد أن محمدا رسول الله » النفثت سكينه الى بنت عثمان وسألنها :
ـ هذا أبى أم أبوك ؟

فأجابت العثمانية فى تواضع :

ـ لا أفخر عليكم أبدا (٢)

وقالوا كذلك ، ان « الأحوص الأنصارى » سمع « سكينه » تفخر بأبيها ، فجرؤ على أن يفاخرها ، ويقال انه كان يضمـر لها حبا لا يجرو على البوح به :

فخرت واتمت فقلت : ذرينى

ليس جهل أتيتـه بيديع

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ١٦٦ ، ١٦٧ ط الحسينية
(٢) الاغانى : ١٥٩/١٤ ساسى

فأنا ابن الذي حمت لحمه الد
بر قتيل اللحيان يوم الرجيع
غسلت خالي الملائكة الأبـ

رار ميتا ، طوبى له من صريع ! (١)

وكان جده « عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري » قد بعثه
النبي في سرية الى المشركين فقتلوه ، ولما أرادوا أن يصلبوه حمته الدبر
أى النحل ، فلقب بحمى الدبر . وخاله ، هو ابن عمير بن مخشى الذى
استشهد ، فقيل ان الملائكة غسلته

فلما فاخر الأحوص سكيئة ، غضب لها الناس وفيهم سليمان بن عبد
الملك ، الذى أنكروا على الأحوص رده على بنت الحسين فيما أنكروا ، ونفاه
عن المدينة عقابا له

وقال قائل من القوم : « وقد لعمري فخر الأحوص بفخر لو على غير
سكيئة فخر به ، وبأبى سكيئة حمت أباه الدبر ، وغسلت خاله
الملائكة ! » (٢)



وكذلك عرف عنها أنها كانت تمتاز بجمالها وتعدده من نعم الله عليها ،
وتحرص على اظهاره فى أبديع مظهر ، وما أناقتها المشهورة ، وطرقتها
السكينية المبتدعة ، الا آية اعتزاز بذلك الجمال وعناية به

ولم تكن تسمح لضرتها « عائشة بنت طلحة » أن تتناول أمامها بما
لها من حسن ، بل كانت تلقبها بذات الأذنين ، كى تردّها الى شئ من
التواضع تجاهها

وقد مر بنا الخبر عن مباهاتها بجمال بنتها ، ومبالفتها فى تزيينها ، ثم
قولها : انها ما ألبستها الدر الا لتفضحه !

وكانت شجاعة اللسان والجنان :

(١) الاغانى : ٢٢٤/٤ ، دار الكتب

(٢) الاغانى : ٢٢٤/٤ دار الكتب وانظر ترجمة عاصم بن ثابت ، جد الاحوص ، وخاله بن
عمير فى (الاصابة ، والاستيعاب)

سمعت أن ابن مطير - خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم المرواني (١) - يشتم جدها كرم الله وجهه ، من فوق منبر جدها عليه الصلاة والسلام ، فكانت « تجيء يوم الجمعة لتشاهد صلاة الجماعة ، فتقوم بازاء الحارث اذ يصعد المنبر ، فاذا شتم عليا - رضى الله عنه - تصدت له سكينه فشتمته ، ثم أمرت جواريتها أن يشتمنه ، فلا يملك ابن مطير أن يرد عليها ، بل يكتفى بأن يأمر الشرطة بضرب الجوارى » (٢) ويذكرون في وصف شجاعتها حادثة عجيبة ، ان يبدئ فيها عنصر الغلو ، فذلك مما لا يضيع دلالتها على رأى الناس في هذه السيدة الباسلة .

قالوا ان سلعة ظهرت بأسفل عينيها فما زالت تكبر حتى أخذت جانب وجهها وعينيها . وكان بين مواليها مولى رومى يدعى « درافيس » ، ذو خبرة بالطب والجراحة . فشكت اليه هذه السلعة التى تؤلمها ، وتوشك أن تشوه جمالها . ولما سألها درافيس :

— أتصبرين على ما يمسك من الألم حتى أعالجك ؟

أجابت دون تردد : بلى

قال الراوى : « فأضجعها درافيس ، وشق جلد وجهها أجمع ، وسلخ اللحم من تحت السلعة حتى ظهرت عروقها . وكان من السلعة شيء تحت الحدة ، فرفع الحدة عنها حتى جعلها ناحية ، ثم سل عروق السلعة من تحتها فأخرجها أجمع ، ورد الحدة الى موضعها وسكينه مضجعة لا تهتز ولا تن ، حتى فرغ مما أراد ...

« وزال ذلك عنها ، وبرئت منه ، وبقي أثر من تلك الجراحة في مؤخر عينيها ، فكان أحسن شيء في وجهها من كل حلى وزينة ، ولم يترك في نظرها ولا في عينيها أدنى أثر » (٣)

وكانت آية في ضبط النفس والتحكم في عواطفها والسيطرة على وجدانها ، وبهذا الضبط استطاعت أن تحتفظ بمرحها في بيت أبيها رضى

(١) كان الحارث واليا على المدينة لهشام بن عبد الملك ، وقد عزله عنها سنة ١١٨ هـ بعد وفاة سكينه بعام . أنظر تاريخ الطبرى : ٢٢٨/٨

(٢) الاغانى : ١٥٩/١٤

(٣) الاغانى : ١٦٥/١٤ ساسى

الله عنه كى تكون مبعث أنس له فى عوابس الظروف وحوالك الأيام .
وبلغ بها هذا الضبط ، أن أمضت حياتها الزوجية مع « مصعب » وهو
لا يدرى ما تضرره له من حب عميق وعاطفة قوية ، حتى جاء يودعها
الوداع الأخير فصاحت من خلفه : وا حزناه عليك يا مصعب !.. فالتفت
إليها وقال فى دهشة : أو كل هذا لى فى قلبك ؟.. قالت : أى والله ، وما
كنت أخفى أكثر !

وكانت كريمة تهين المال ، وإن ضاق القيم على أموالها بأسرافها فى
الكرم . حج أشعب مرة ، فأمرت له بجمل قوى يحمل أثقاله ، فأعطاه
القيم جملاً ضعيفاً ، فمضى أشعب يشكوه إلى سيدته فأرضته (١)
وقد مر بنا آنفاً ، ما ذكروه من وقفها بالمحصب من منى ترمى الجمار ،
فلما سقطت من يدها الحصاة السابعة ، رمت بخاتمها بدلاً من هذه
الحصاة !

أما نوادر ظرفها فكانت حديث المجتمع وروح مسامره ، وكان الناس
يتناقلون هذه النوادر ويضحكون لها بملء قلوبهم وأفواههم ، يستوى
فى ذلك من يستطيون النكتة ويهشون للدعابة ، ومن عرفوا بالحزم
والشدة ، وما ظنك بعمر بن عبد العزيز فى صرامة جده ، ووقار هيئته ،
يضحك لاحدى نوادر سكينه حتى يمسك بطنه ، وهو يومئذ وال على
المدينة (٢)

ثم قصتها مع إبراهيم بن عبد الرحمن ، وحديث « بنات أشعب » ،
وردها على من سألها لم تكثر من المزاح وأختها لا تفعل ، كل هذه الأخبار
وأمثالها معها ، تشهد بما كان للهاشمية الحسناء من ظرف آسر ، وبديهة
حاضرة ، واعتداد بالذات !

وهكذا كانت عزة النسب ، وعزة الجمال ، وأناقة المظهر ، وظرف
النسجاية ، وذكاء الأنوثة ، ولطف الدعابة ، إلى جانب ما عرف لها من
ذوق فنى أصيل ، وفقه لأسرار البيان ، عناصر تشترك جميعاً فى تأليف

(١) الاغانى : ١٦٥/١٤ ساسى

(٢) الاغانى : ١٥٩/١٤ ساسى

شخصيتها الفريدة ، بكل جاذبيتها وسحرها
ثم أضيف الى ذلك كله ، هذا المزاج النادر من التحرر والاباء ، من
التسامح والتصون ، من الانطلاق والترفع ، فأتيح لها أن تظهر في المجتمع
ملء البهاء والظرف ، ملء الجلال والوقار ، وتهياً لها أن تختار أسلوبها
في الحياة ، متحررة من النفاق الاجتماعي ، دون أن ينال ذلك من مهابتها
أو يلقي ظلاً من التهاون فيما يجب لمثلها من تصون وعزة
وقد أشرنا - في الحديث عن حياتها الزوجية - الى دوافع ذلك التمرد
على نفاق المجتمع والسخرية بأوضاعه وأكاذيبه ، وربما كان من مظاهر
هذا التمرد ، ظهورها في المجتمع الأدبي على نحو لم نألفه من أختها
وبنت عمها ، ولكنها ظلت مع هذا الظهور ، « بنت النبي » ! ولم تنس
لحظة ، ولا نسي المجتمع ، أنها سكينه بنت الحسين !
وانها لتجالس الأجلة من رجال قريش ، ويجتمع لديها الشعراء ،
وتصغي الى المخنين ، وتسيطر على المجتمع الأدبي ، دون أن تتخلى عن
اعتزازها بشرفها العالي ، أو يزايها وعيها لموضعها من بيت النبوة !

المجتمع في عصرها

بهذه الشخصية الفريدة الجذابة ، ظهرت سكينة في المجتمع فشغلت عصرها ، والعصور من بعده

ولن نستطيع المضي في الحديث عن سكينة في المجتمع الادبي ، قبل أن نمهد له بحديث عن حال هذا المجتمع في عصرها . وهو حديث قد يطول ، لكن عذرنا أن فهمه على حقيقته ضرورة لازمة ، لتبين الشخصية الأدبية للهاشمية الحسنة ، والمكان الذي شغلته في المجتمع الأدبي



وقد يخيّل الى كثير منا ، أن وصف حال الأدب والمجتمع في الحجاز في عصر سكينة ، مما لا مجال لمزيد من القول فيه ، بعد أن فرغ منه الدارسون وأضافوه الى ذلك الصنف من الموضوعات « التي نضجت واحترقت »

ولهم في تاريخ هذا العصر ما شبه المسلّمات التي ليس للخلاف فيها مجال

منها : ان مجتمع الحجاز - وبخاصة في مكة والمدينة - في العصر الأموي ، قد فسد وانحل ، أثرا لسياسة بنى أمية التي عزلت أبناء الأشراف من الحجازيين عن مهام الملك وشئون السياسة ، وحبستهم هنالك في فراغ يفسده الشباب ، وتفسده معه أموال أغدقها عليهم الأمويون في سخاء مسرف ، وبذلك قضوا عليهم أن ينفقوا أيامهم في اللهو والعبث ويبلوا حياتهم في لعبث والمجون (١)

(١) الدكتور طه حسين : حديث الاربعاء ٢٣٥/١

ومنها : ان تشجيع حياة المجون في العاصمتين الدينتين للإسلام ، قصد به الأمويون الى القضاء على مالهما من نفوذ ديني كبير ، وسيطره روحية نافذة ، حتى جاز للأستاذ المحقق « عبد الله العليلى » أن يذهب الى أن الأمويين « قد استأجروا طوائف من الشعراء والمغنين والمختشين ، من بينهم عمر بن أبي ربيعة ، لأجل أن يمسحوا عاصمتي الدين - مكة والمدينة - بمسحة لا تليق بهما ولا تجعلهما صالحتين للزعامة الدينية » رساق هنا حادثة الأخطل الشاعر النصراني ، « الذي استخدموه - منذ عهد معاوية - في الحرب الكلامية التي أرادوا بها أن يخضدوا من شوكة المدينة ويقضوا على الطبقة الدينية المحترمة ليخلصوا من سيطرتها » (١) ومنها : أن شعر عمر بن أبي ربيعة هو مرآة للمجتمع الحجازي في ذلك العصر ، والمصدر الأول والأهم لفهمه على حقيقته وتأريخه وتأريخا صادقا ، حتى ليقول أستاذنا الكبير الدكتور طه حسين : « ان الأدباء والمؤرخين لن يستطيعوا أن يقدروا هذه النعمة التي أتيحت لهم ، حين حفظ الدهر لهم شعر عمر بن أبي ربيعة كله أو أكثره . فلست أعرف شاعرا اسلاميا استطاع أن يمثل العصر الذي كان يعيش فيه والبيئة التي يحيا فيها ، كهذين الرجلين اللذين نستطيع أن نتخذهما مرجعا في درس الجماعة التي كانت تحيط بهما : تريد أن تدرس العراق في صدر الدولة العباسية وأن تدرس مدينة بغداد أيام الرشيد والأمين خاصة فارجع الى أبي نواس . تريد أن تدرس حياة الحجاز في صدر الدولة الأموية فارجع الى ابن أبي ربيعة . وليس من شك في أنك ستجد شيئا كثيرا نافعا في درس مسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك وأبى العتاهية ، كما أنك ستجد شيئا كثيرا نافعا في درس العرجي والاحوص وابن ذريح ، ولكنك لن تجد عند واحد من هؤلاء ، بل لن تجد عند هؤلاء مجتمعين ، ما ستجده عند أبي نواس من تمثيل الحياة البغدادية على وجهها ، ولا ما ستجده عند عمر بن أبي ربيعة من تصوير الحياة الحجازية على حقيقتها . تلك نعمة

(١) الأستاذ عبد الله العليلى : أشعة من حياة الحسين : ٤٧

بتيحها الدهر من حين الى حين للباحثين عن التاريخ الأدبي ، حين يظهر
اهم شاعرا أو كاتبا قد انتهت اليه كل الخلال كما ظهرت فيه كل النقائص
التي كانت تمتاز بها بيئته ، والتي كانت بعيدة الأثر في عصره . وانما
يظهر هؤلاء الكتاب والشعراء في العصور التي تقوى فيها الحياة الأدبية
قوة خاصة ممتازة ، كذلك العصر الأموي في الحجاز وكذلك العصر
العباسي في بغداد « (١)

ثم أكد هذا مرة أخرى حين قال :

« ان المؤرخ الذي يريد أن يدرس الصلة بين الرجال والنساء في هذا
العصر ، يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبي ربيعة ، فسيجد منه في
شعر هذا الشاعر كل ما أراد » (٢)

هذه هي الصورة الدائعة الشائعة لمجتمع الحجاز في عصر سكيئة ، كما
وسمها أعلام مؤرخي الأدب ، وكما استقرت في أذهاننا
فهل كان الحجاز حقا ، على ما وصفوه ؟
وهل الذي قالوه وقاله عمر بن أبي ربيعة ، هو كل ما كان هناك ،
ولا شيء سواه ؟
نرجىء الجواب عن هذا ، ريثما نسمع ما قالوه أيضا ، في بنت الامام !

(١ ، ٢) حديث الاربعاء : ٢٨٩ ، ٢٩١

صورتها في هذا العصر

وطبيعي أن يكون وجود سكينة في هذا المجتمع ، ومعاصرتها لعمر ،
كافيين لأن يلقيا على صورتها ظلالا من ذلك كله
فمؤرخو الأدب ، يكادون لا يرتابون في أن عمر قد تغزل فيها دون
تكتم أو حذر أو احتياط ، وأنه قد كانت له معها مواقف ، سجلها في
ديوانه ، وتغنى بها المعنونات والمغنيات في الحجاز وغير الحجاز ، وأشبعها
(كتب الأغاني والأمالى) شرحا وتفصيلا
فمن تلك القصائد ، بأئيته المشهورة :

قالت سـكينة والدموع ذوارف
منها على الخدين والجلباب
ليت « المغيرى » الذى لم أجزه
فيما أطال تصيدى وطلايبى
كانت ترد لنا المنى أيامنا
اذ لا نلام على هوى وتصايبى
خبرت ما قالت فيت كأنما
يرمى الحشا بنوافذ النساب
أسكين ما ماء الفرات وطيبه
منى على ظمأ وفقد شباب
بألد منك وان نأيت وقلما
ترعى النساء أمانة الغياب
ان تبذلى لى نائلا أشفى به
داء الفؤاد فقد أطلت عذابى

وعصيت فيك أقاربى وتقطعت
 بينى وبينهم عثرى الأسباب
 فتركتنى ، لا بالوصال ممتعا
 منهم ، ولا أسـعفتنى بشواب
 فتعدت كالمهريق فضلة مائه
 فى حر هاجرة للمع سراب
 ذكرها القالى فى أماليه ، والزجاج فى أماليه كذلك ، عن الأخفش عن
 المبرد

على أن « الاصفهاني » - وهو معاصر « للقالي » ، وأن تداى بهما
 المكان ما بين أقصى المشرق وأقصى المغرب - قد رواها مرة هكذا : (١)
 قالت « سعيدة » والدموع ذوارف
 منها على الخدين والجلباب

♦♦♦ ♦♦♦ ♦♦♦ ♦♦♦

أ « سعيد » ما ماء الفرات وطيبه
 منى على ظمأ وفقـد شباب
 بألذ منك وان نأيت وقلما
 ترعى النساء أمانة الغياب
 قال أبو الفرج :

« وسعيدة ، هى سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف ، وكان عمر قد
 تعرض لها بعد طوافه ، فقالت له : ويحك يا ابن أبى ربيعة ، ما تزال
 سادرا فى حرم الله متهتكا ، تتناول بلسانك ربات الجمال من قريش !
 أمرك بتقوى الله وترك ما أنت عليه . قال أبو الفرج : « وانما غيرـه
 المغنون فقالوا : سكينه »

وقال أبو اسحق الحصرى (ت ٤١٣ هـ) بعد أن أورد هذه الأبيات
 كرواية القالى : « كذب من روى هذا الشعر فى سكينه رضى الله عنها » (٢)

(١) ح ١٠/١٦٦

(٢) الحصرى : زهر الاداب ١/١٠١

وأخذ الشيخ الشنقيطي « برأى صاحب الأغاني في أن القصيدة
مبت في سعدى هكذا :

❖ قالت سعيدة والدموع ذوارف ❖
على انه عقب عليها بما يشير الى أنها كانت تروى في عصر الرشيد ،
تبنى انها في سكينه بنت الحسين . قيل : « ان اسحاق الموصلي غنى
الرشيد يوما :

❖ قالت سكينه والدموع ذوارف ❖
فوضع القدح من يده وغضب غضبا شديدا وقال : لعن الله الفاسق
« لعنك معه !.. فسقط في يد اسحاق ، فعرف الرشيد ما به فسكن ثم
قال : ويحك ، أتغنيني بأحاديث الفاسق ابن أبي ربيعة في بنت عمي
وبنت رسول الله ؟.. ألا تتحفظ في غنائك ؟.. أو تدرى ما يخرج من
رأسك ؟ » (١)

أما الدكتور زكي مبارك ، ففرر أن عمر قالها في « سكينه » اثر
اجتماعه بها مع نسوة من أهل المدينة ، تلبية لدعوة بعثت بها السيدة
سكينه اليه مع رسول لها ، وواعدته « الصوريين » مكانا ، في ليلة
حادثتها له . وقد ذكر الدكتور مبارك مرجعه : « صاحب الأغاني ، في
أخبار عمر ، في الجزء الأول » (٢)

فعلق « السيد الفكيكي » على هذا بقوله :
« مع العلم بأن صاحب الأغاني لم يذكر هذا الشعر في ليلة الصوريين ،
وانما ذكر شعرا آخر »
ونقول : بل قد ذكرها صاحب الأغاني في حادثة الصوريين فعلا ،
في الجزء الأول من الأغاني (٣)
على أنه ، كذلك ، ذكر حادثة انصوريين هذه بنصها في موضع آخر ،
مع شعر آخر ، قال :

(١) الجبر في « الأغاني : ١٢/١٦ »

(٢) حب أبي ربيعة وشعره : ١٩٨

(٣) س ١٦١ ، ١٦٢ ط دار الكتب ولعل السيد الفكيكي رجع الى نسخة أخرى

« اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه وحسن حديثه ، فتشوقن اليه وتمنينه . فقالت سكينه بنت الحسين رضي الله عنهما : أنا أكن به . فأرسلت اليه رسولا ، وواعدته الصورين ، وسمت له الليلة والوقت ، وأعدت صواحباتها . فوافاهن عمر على راحلته فحدثهن حتى أضاء الفجر وحان انصرافهن . فقال لهن : والله اني لمحتاج الى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة في مسجده ، ولكن لا أخط بزيارتكن شيئا . ثم انصرف الى مكة وقال : ألمم بزينب ان البين قد أفدا

قل الشواء لئن كان الرحيل غدا
قد حلفت « ليلة الصورين » جاهدة
وما على المرء الا الحلف مجتهدا
لأختها ، ولأخرى من مناصفها
لقد وجدت به فوق الذي وجدا
لو جمع الناس ثم اختير صفوهم
شخصا من الناس لم أعدل به أحدا (١)

والسند في الروايتين واحد ! ..

وقد غنى بالبائية « الهذلي ، والغريص »

وغنى بالدالية « ابن سريج ، ومعبد » وكذلك « الغريص ومالك »

في بعض الروايات

ثم ان أبا الفرج نفسه ، عاد وذكر هذه الأبيات الدالية ، مقترنة بليلة الصورين ، مع اضافة جديدة لم ترد في الموضعين السابقين . تلك هي أن عمر لما انصرف من اجتماع الصورين ، قال داليتة :

✽ ألمم بزينب ان البين قد أفدا ✽

« فلما كان بمكة قال : يا غريص ، اني أريد أن أخبرك بشيء ، يتعجل لك نفعه ويبقى لك ذكره ، فهل لك فيه ؟ .. قال : أفعل من ذلك ما شئت

وما أنت أهله . قال : انى قلت فى هذه الليلة التى كنا فيها — يعنى ليلة
الصورين — شعرا ، فامض به الى النسوة فأنشدن ذلك وأخبرهن انى
وجهت بك فيه قاصدا . قال : نعم . وحمل الغريض الشعر ورجع الى
المدينة فقصد سكىنة وقال لها : جعلت فداك ياسيدتى ومولاتى ! ..

ان أبا الخطاب أبقاه الله وجهنى اليك قاصدا

قالت : أو ليس فى خير وسرور تركته ؟ ..

قال : نعم ..

قالت : وفيهم وجهك أبو الخطاب حفظه الله ؟ ..

قال : جعلت فداك ! .. ان ابن أبى ربيعة حملنى شعرا وأمرنى أن
أنشدك اياه ..

قالت : فهاته ..

فأنشدها :

* ألمم بزيب ان البين قد أفدا * الأبيات

فقلت سكىنة : يا ويحه ! .. فما كان عليه أن لا يرحل فى غده ؟ ..

ووجهت الى النسوة فجمعتهن وأنشدتهن الشعر وقالت للغريض :

— هل عملت فيه شيئا ؟ ..

قال : قد غنيته ابن أبى ربيعة

قالت : فهاته ..

فغناه الغريض ، فقالت سكىنة :

— أحسنت والله وأحسن ابن أبى ربيعة ! .. لولا انك سبقت فغنيته

عمر قبلنا لأحسنا جائزتك

ثم نادى : يا بنانة ، أعطيه بكل بيت ألف درهم ، فأخرجت اليه بنانة

أربعة آلاف درهم فدفعته اليه . وقالت سكىنة :

— لو زادنا عمر لزدناك »

ومع ان الجائزة تحدد عدد الأبيات بأربعة فقط كما لاحظ « انسيد

الفكىكى » الا انها جاءت فى الديوان — شرح محمد العنانى — بزيادة

خمسة أبيات ، لم ترد في « الأغاني » مع تصريح الشارح بأنها كانت مرجعه ومعتمده . والأبيات الخمسة هي :

لعمرها ما أراني ان نوى نزحت
أو دام ذا الحب الا قاتلى كمدا
بكر دعا فأتى عمدا لشقوته
ما جاء من ذاك ان غيا وان رشدا
من ينه يعص ، ومن يحسد ، ولا وأبى
ما ضرّها من وشى عندى ومن حسدا
هذا يقربه منها وعبرتها
يوم الفراق فما راعى ولا اقتصدا
وقد نهيت فؤادى عن طلبها
فاغشنى وأتى ما شاء معتمدا ..

ورفض الأستاذ الفكيكي هذه الأبيات .

ورفض معها القول بأن الدالية قد قيلت في سكينه ، ولم يرد اسمها فط في بيت منها . وإنما هي في « عائشة بنت طلحة المخزومية ، وهي بنت أخت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وكانت تسكن المدينة ، ولا يبعد أنها كانت من جملة النسوة في ليلة الصوريين ان صحت الرواية ، ذلك لأن عمر بن أبى ربيعة قال فيما قال فيها :

يا أم طلحة ان البين قد أفدا
قل الشواء لكن كان الرحيل غدا
أمسى العراقى لا يدرى اذا برزت

من ذا تطوف بالأركان أو سجدا
فأنت ترى ان مطلع تلك الأبيات وهذه واحد ، لولا اختلاف الكناية عن اسمها ، تهيبا من غضب فتيان بنى تيم الذين توعدوه « (١)

(١) السيدة سكينه : ٣٢ - والابيات في ديوان عمر ، ص ١٤٠

وقصيدة ثالثة ، رواها « أبو علي القالي » في أماليه هكذا .
 ان طيف الخيال حين ألمّا
 هاج لي ذكرة وأحدث همّا
 جددى الوصل يا « سكين » وجودى
 لمحب رحيله قد أحما
 ليس بين الرحيل والبين الا
 ان يردوا جمالهم فتزمت
 ولقد قلت مخفيا لفريض
 هل ترى ذلك الغزال الأجمّا
 هل ترى فوقه من الناس شخصا
 أحسن اليوم صورة وأتمّا
 ان تنيلى أعش بخير وان لم
 تبذلنى الود مت بالهم غمّا
 وقال أبو علي : انها من شعر عمر في سكينه (١)
 وكذلك جاءت في الديوان ، برواية أبي علي .
 غير أن « أبا العلاء المعرى » روى البيتين الأولين هكذا :
 ودعى القلب يا « قريب » وجودى
 لمحب فراقه قد أحما
 ليس بين الحياة والموت الا
 أن يردوا جمالهم فتزمت (٢)
 وكذلك رواها أبو الفرج ، بلفظ « قريب » :
 ان طيف الخيال حين ألمّا
 هاج لي ذكرة وأحدث همّا
 جددى الوصل يا قريب وجودى
 لمحب فراقه قد ألمّا

(١) الامالى « سبط اللالى : ٣٠٥/٢ »
 (٢) رسالة الغفران . تحقيق بنت الشاطىء : ٥٣٩ ط ٣ ذخائر

ليس بين الحياة والموت الا
 أن يردوا جـسـالـهم فـتـزـمـاً
 ولقد قلت مخفياً لغريظ :
 هل ترى ذلك الغزال الأجماً
 هل ترى مثله من الناس شخصاً
 أكمل الناس صورة ، وأنساً (١)
 وأعاد رواية بيتين منها في موضع آخر ، عن تدعى أم إسحاق :
 « سمعت ابن سريج على أخشب مى غداة النفر وهو يغنى :
 جـادى الوصل يا قريب وجودى
 لمحـب فـراقـه قـد المـا

ليس بين الحياة والموت الا
 أن يردوا جـسـالـهم فـتـزـمـاً
 فما تشاء أن تسمع من خباء ولا مضرب ، حيناً ولا أنيناً الا
 سمعته ! » (٢)

ثم أعادها بمثل هذه الرواية في موضع ثالث ، من أخبار « ابن سريج »
 ثم أضاف هذا الخبر :

« أنشد جعفر بن محمد بن زيد بن على بن الحسين عليهم السلام قول
 عمر :

ليس بين الحياة والموت الا
 أن يردوا جـسـالـهم فـتـزـمـاً
 فطرب وارتاح وجعل يقول : لقد عجلوا البين ! .. أفلا يكون فربة ؟
 أفلا يودعون صديقاً ؟ .. أفلا يشدون رحلاً ؟ .. حتى جرت دموعه » (٣)
 وأنكر « السيد الفكيكي » على جامع ديوان عمر أن يأخذ بروايته القالى ،

(١) الاغانى : ١٢١/١ دار الكتب

(٢) الاغانى : ٢٩٣/١ دار الكتب

(٣) الاغانى : ٣٠٥/١ دار الكتب

يريدع رواية الأغاني التي كررها في ثلاثة مواضع ، ثم تساءل السيد :
 « وهل من العقول يا ترى أن ينشد الامام الصادق عليه السلام ما تغزل
 به ابن أبي ربيعة في عمه أبيه فيطرب ويرتاح ؟ .. وهل من الحق أن
 ننصوره أقل من هارون الرشيد وقد غضب غضبا شديدا ، في شوته ،
 على اسحاق الموصلي حينما غنى بين يديه بقول عمر حسب الرواية
 المغلوطة :

❖ قالت سعيدة والدموع ذوارف ❖

ومقطوعة رابعة لعمر ، قيل انها — هي الأخرى — في سكبنة بنت
 الحسين :

أحب لحبك من ثم يكن	صفيا لنفسى ولا صاحباً
وأبذل نفسى لمرضاتكم	وأعتب من جاءكم عاتباً
وأرغب في ود من لم أكن	الى وده قبلكم راغباً
ولو سلك الناس في جانب	من الأرض واعتزلت جانباً
ليمت طيتها ، اننى	أرى قربها العجب العجائباً
فما ظلية من ظبا الأرا	ك تقرو دميث الربى عاشباً
بأحسن منها غداة انغميم	وقد أبدت الند والحاجباً
غداة تقول على رقبة	لخادمها : يا احبسى الراكباً
فقلت لها : فيم هذا الكلام ؟ ..	وأبدت لها عابساً قاطباً
فقلت : كريم أتى زائراً	يمر بكم هكذا جانباً ! ..
شريف أتى ربنا زائراً	فأكره رجعتـه خائباً

غنى في أبياتها الأول والرابع والخامس « ابن القفاص المكي » (١)
 وقد أنكر « السيد الفكيكي » أن تكون قيلت في سكبنة بنت
 الحسين ، وظنها من مفتريات الدكتور زكى مبارك ، الذى قال في دعواه

أنه اعتمد في هذه الأخبار على الأغاني وزهر الآداب والأمالى (١)
قال :

« ونحن أيضا رجعنا الى هذه الموضوعات الأدبية وغيرها من المصادر
المعتبرة ، وأمّات الكتب في لغة العرب وآدابها ومختلف تواريفها ... فلم
نعر على ما عثر عليه الدكتور مبارك بأن هذه المقطوعة قالها ابن أبي
ربيع في سكينه ، ولم يذكر الأغاني من هذا الشعر سوى بيتين هما :
أحب لحبك من لم يكن صفياء لنفسي ولا صاحبها
وأبذل مالى لمرضاتكم وأعتب من جاءكم عاتبا
كما ان من عنى بجمع شعره وشرحه من الأدباء لم يذكروا ما ذكره
الدكتور .. » (٢)

والحق ان الأبيات وردت كاملة في (الأغاني) بالنص الذي أثبتناه
هنا ، نقلا عن طبعة دار الكتب
وقد جرى بها عقب البائية :

❖ قالت سكينه والدموع ذوارف ❖

في سياق الشعر الذي قاله عمر في سكينه ، وصدرت بعبارة : « وقال
فيها » عودا بالضمير الى سكينه
ولكن الحق أيضا أن القصيدة لم ترد في كل النسخ الخطية للأغاني ،
وانما نقلت في طبعة دار الكتب عن المخطوطة التيمورية . ولعل سقوطها
من بعض النسخ ، هو الذي جعل السيد الفكيكي يؤكد « ان صاحب
الأغاني لم يأت منها بغير بيتين اثنين ، ودون أن يشير الى أنها قيلت في
سكينه »

وهذه الصورة لسكينه ، تلتنم مع صورة عصر يمثله شعر عمر بن أبي
ربيعه ، كما قال قائلون . فليس شيء من هذا الذي قيل في بنت
الحسين بمستبعد ، اذا صح ما ذكروا من أن المجتمع الحجازي قد أباح

(١) حب ابن أبي ربيعة وشعره : ١٩٣

(٢) السيد توفيق الفكيكي : السيدة سكينه : ٤٣

ليسر أن يطلق لسانه في شريفات فريش غير متحرج ولا هيب ، وصدق ما ذهبوا إليه من أن تغزل عمر بإحدى هؤلاء ، كان شهادة معترفا بها لصاحبيتها بالحسن والجمال ، تعريض كل حسناء على الظفر بها وتتكلف في سبيلها ما يباح وما لا يباح ، حتى لتقول « الثريا بنت علي » وقد سمعت قول عمر في رملة :

وجلا بردها وقد حسرتة نور بدر يضيء للناظرينا !

« آف له ما أكذبه !.. أو ترتفع حسناء بصفته لها بعد رملة .. »

ورملة هذه هي بنت عبد الله بن خلف ، تزوجها عمر بن عبيد الله بن معمر ، فلما تزوج عليها عائشة بنت طلحة بعد مقتل مصعب ، قال الشاعر :
انعم بعائش عيشا غير ذي رفق

وانبذ برملة نبذ الجورب الخلق

وقالت له عائشة يوما في لحظة صفاء : اعدد لي أيامك واذكر أفضلها .

فعد لها يوم أبي فديك ويوم سيجستان ، ويوم قطري بفارس ، ونحو ذلك . لكن عائشة استدركت عليه قائلة : « قد تركت يوما نهم تكن في أيامك هذه أشجع منك فيه !.. » سألتها : « وأي يوم هو ؟ .. » قالت : « يوم أرخت رملة الستر عليها وعليك ! .. » (١)

وسكينة قد كانت سيدة نساء عصرها ملاحاة وظرفا وأناقة ، وربما يؤذى جمالها — عند هؤلاء — أن يسكت عمر فلا يمنحها الشهادة الرسمية المعترف بها وحدها في سوق الجمال ، بعد أن أقر له الشعراء بأنه أوصفهم لربات الحجال

ثم إن شعره في سكينة ، ليس فيه من الفحش ما يقاس بشعره في أخريات من حسان ذلك العصر حيث جعل مخادعهن — لا البيوت وحسب — ميدانا لمغامراته الغرامية ، ولن أنقل هنا رائيته في النوار :

راح صـحـبـي ولم أحـيـ النوارا

وقليل لو عرجوا أن تزارا

(١) الاغانى : ج ١١ ص ١٨٠ وما بعدها — ط دار الكتب

وانما أنقل هنا قصيدته القافية في إحدى شريفات المجتمع .
 ولما التقينا واطمأنت بنا النوى
 وغيب عنا من نخاف ونشفق
 فقمنا لكى يخلي لنا فترقرقت
 مدامع عينيها وظلت تدفق
 وقالت : أما ترحمنى ! .. لا تدعننى
 لذى غزل جم الصبابة أخرق
 فقلن : اسكتى عنا فلست مطاعة
 وخيلك عنا - فاعلمى - بكِ أرفق !

وداليتة فى هند بنت الحارث المريية :

ولقد قالت لجان لها ذات يوم ، وتعرت تبترد
 أكما ينعتنى نبصرنى عمركن الله أم لا يقتصد
 فتهاقن وفد قلن لها : حسن فى كل عين من تود
 حسد حُمَّلنه من أجلها وقديما كان فى الناس الحسد
 أجل ، أى شىء فى تغزله بسكينة ، يقاس بهذا الذى نثلت أقله
 وأمسكت عن أكثره ! ..

وأى ضير عليها ، وهذا المجتمع الذى عاشت فيه قد طاب له - فيما
 قالوا - أن يصغى الى معازف المغنين وحناجر المغنيات ، وهى تنطلق فى
 مهد الاسلام ودار الهجرة ، شادية بغزل عمر فى بنت الحسين ، وأخت عبد
 المالك وبنته ، وامرأة سهيل بن عبد العزيز بن مروان ، وعائشة بنت طلحة ،
 ولبابة بنت عبد الله بن عباس ، ومن لا أحصى هنا من أسماء العقائل
 الكريمات ! ..

بلى ، ان صورة سكينة فى هذه الأخبار والأشعار ، تأتلف مع صورة
 المجتمع الحجازى فى عصرها كما تمثله أعلام مؤرخى الأدب
 على أن الصورة الأولى لن تكتمل ، الا اذا أضفنا إليها هنا ، مجالس
 الطرب والغناء التى قيل أن « سكينة » كانت تعقدها فى مجلسها بدار

البيجرة ، على بعد خطوات من مثنوى جدها الرسول ، في مسجده الشريف ::
 من تلك المجالس ، ما رواه صاحب الأغاني عن المغنين الأربعة المتقدمين
 في عصر سكيئة : ابن سريج ، والغريض ، ومعبد الحجازيين ، وحنين
 الحيرى العراقى . قيل ان الثلاثة الحجازيين اجتمعوا يوما فتذاكروا أمر
 حنين الحيرى وكتبوا اليه يقولون : نحن ثلاثة بالحجاز وأنت وحدك
 بالعراق . فأنت أولى بزيارتنا . فشخص اليهم ، فلما كان على مرحلة من
 المدينة بلخهم خبرد فخرجوا يتلقونه فلم يثرَ يوم " أكثرَ حشرا ولا جمعا
 من يومئذ . ودخلوا المدينة فلما صاروا في بعض الطرق ، قال لهم معبد :
 صيروا الى . فقال ابن سريج : ان كان لك من الشرف والمروءة مثل ما
 لمولاتى سكيئة بنت الحسين عطفنا اليك . فقال : ما لى من ذلك شيء
 وعدلوا الى منزل « سكيئة » فلما دخلوا اليها أذنت الناس اذنا عاما ،
 فغصت الدار بهم وصعدوا فوق السطح ، وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا ،
 ثم انهم سألوا حنينا أن يغنيهم صوته الذى أوله :
 هلا بكيت على الشباب الذاهب وكففت عن ذم المشيب الآيب .
 وكان حنين قد قال لهم : ابدءوا أنتم . فقالوا : ما كنا لتقدمك ، ولا
 نغنى قبلك حتى نسمع هذا الصوت
 فلما غناهم اياه ، وكان من أحسن الناس صوتا ، ازدحم الناس على
 السطح وكثروا ليسمعوه ، فسقط الرواق على من تحته ، فسلموا جميعا
 وأخرجوا أصحاء ، غير « حنين » فانه مات تحت الهدم
 وقالت سكيئة :

— لقد كدر علينا حنين سرورنا !.. انتظرناه مدة طويلة ، فلما جاء
 مات ، كأنا والله كنا نسوقه الى منيته (١)

ومجلس آخر رواه صاحب الأغاني قال :

« كان ابن سريج قد أصابته الريح الحبيشة وآلى يمينا ألا يغنى .
 دنسك ولزم المسجد الحرام حتى عوفى . ثم خرج وفيه بقية من العلة ،

(١) الاغانى ج ١٥ ساسى - وانظر معه مافى (عيون الاخبار : ٩٠/٤)

فأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وموضع مصلاه ، فلما قدم المدينة نزل على بعض اخوانه من أهل النسك والقراءة ، فكان أهل الغناء يأتونه مسلمين عليه فلا يأذن لهم بالجلوس والمحادثة ، فأقام بالمدينة حولا حتى لم يعد يحس من علة بشيء ، وأراد الشخصوص الى مكة ، وبلغ ذلك سكيئة بنت الحسين رضى الله عنه ، فاغتمت اغتما شديدا وضاق به ذرعها ، وكان أشعب يخدمها ، وكانت تأنس بمضاحكته ونوادره . فقالت لأشعب : ويلك !.. ان ابن سريج شاخص وقد دخل المدينة منذ حول ، ولم أسمع من غنائه قليلا ولا كثيرا ، ويعز ذلك على ، فكيف الحيلة فى الاستماع منه ولو صوتا واحدا !

فقال لها أشعب : جعلت فداك ، وائى لك بذلك ، والرجل اليوم زاهد ولا حيلة فيه ، فارفعى طمعك وامسحى بوزك تنفحك حلاوة فمك . فأمرت بعض جواربها فوطئن بطنه حتى كادت أمعاؤه أن تخرج ، وخنقته حتى كادت نفسه أن تتلف ، ثم أمرت به فسحب على وجهه حتى أخرج من الدار اخراجا عنيفا على أسوأ الحالات ، واغتم غما شديدا ، وندم على ممازحتها فى وقت لا يصلح لذاك

ومضى حتى أتى منزل « ابن سريج » ليلا فطرقه ، فقبل من هذا ؟ .. فقال : أشعب . ففتحوا له ، فرأى ابن سريج على وجهه ولحيته التراب ، والدم سائلا من أنفه وجبهته ، وثيابه ممزقة . فهاى ابن سريج ما رأى ، وسأله : « ما هذا .. ويحك ؟ ! .. »

فلما قص عليه القصة ، قال له : انا لله وانا اليه راجعون ، الحمد لله الذى سلمك !.. لا تعودن الى هذه السيدة أبدا

قال أشعب : قديتك .. هى مولاتى ولا غنى لى عنها . ولكن هل لك حيلة فى أن تصير اليها وتغنيها فيكون ذلك سببا لرضاها عنى ؟.. قال ابن سريج : كلا والله ، لا يكون ذلك أبدا بعد أن تركته !

قال أشعب متوسلا : قد قطعت أملى ورفعت رزقى وتركتنى حيران بالمدينة لا يقبلنى أحد وهى ساخطة على ، فالله الله فى ، وأنا أشدك الله .

الآن تحسنت هذا الاثم في !

فأبى ابن سريج أن يجيب

ولما رأى أشعب اصراره ، صرخ صرخة آذن لها أهل المدينة ، ونبه الجيران من رقادهم ، ثم سكت فلم يدر الناس ما القصة عند خفوت الصوت الذى راعهم

وسأله ابن سريج : ويلك !.. ما هذا ؟

فأجاب متوعدا : لئن لم تصر معى اليها لأصرخن صرخة أخرى لا يبقى بالمدينة أحد الا صار بالباب ، ثم لأفتحنه ولأرينهم ما بى ، ولأعلسهم انك أردت سوءا بعلامك — وكان ابن سريج مشهورا بذلك — فمضت وخلصت الغلام من يديك حتى فتح الباب ومضى ، ففعلت بى هذا غيظا وأسفا ، وانك انما أظهرت النسك والقراءة لتظفر بحاجتك من الغلام .. فقال ابن سريج فى جزع : أعزب أخزأك الله ..

فأقسم أشعب بكل الايمان ، لئن لم ينهض معه ابن سريج فى وقته هذا ، ليفعلن ما به أنذر ..

واذ رأى ابن سريج منه الجد ، خرج معه فلما صاروا فى بعض الطريق ، عاد يرجوه أن يمضى عنه ويدعه لشأنه ، فقال أشعب مهددا :

— والله لئن لم تأت معى لأصيحن الساعة حتى يجتمع الناس ، ولأقولن انك أخذت منى سوارا من ذهب لسكينة ، على أن نجيتها فتغنيها سرا ، ثم كابرتنى عليه وجحدتنى وفعلت بى هذا الفعل ..

فمضى معه ابن سريج مستسلما ضائع الحيلة ، حتى جاء بيت سكينة فأذنت لهما فى الدخول ، وقالت لابن سريج :

— يا عبيد ، ما هذا الجفاء ؟

قال : قد علمت — بأبى أنت — ما كان منى ..

قالت : أجل ..

ثم تحدثا ساعة ، وقص عليها ابن سريج ما صنع به أشعب ، فضحكت

وقالت : « لقد أذهب ما كان في قلبي عليه » وأمرت لأشعب بدنانير
وكسوة

ثم قال لها ابن سريج : أأأذن لي بأبي أنت ؟

قالت : وأين ؟

فقال : الى المنزل

قالت : برئت من جدى ان برحت دارى ثلاثا ، وبرئت من جدى ان
أنت لم تغن ان خرجت من دارى شهرا ، وبرئت من جدى ان أقمت في
دارى شهرا ان لم أضربك في كل يوم فيه عشرا ، وبرئت من جدى ان
حشت في يميني أو شققعت فيك أحدا

صاح ابن سريج مستسلما : وا ذهاب دينا .. وا فضيحتاه .. ثم
اندفع يغنى :

أستعين الذى بكفّيه نفسى ورجائى ، على التى قتلتنى

فنزعت سكينه من عضدها سوارا من ذهب ، زنته أربعون مثقالا ،
وأقسمت عليه الا لبسه ، ثم بعثت أشعب الى « عزة الميلاء » تخبرها
بوجود ابن سريج عندها وترجوها أن تزورها

فما أسرع ما جاءت عزة ، وأقامت ليلتها بيت السيدة ، فلما كان اليوم
الثانى هبىء مجلس الغناء ، وقالت سكينه :

— يا عزة ، ان رأيت أن تغنينى فافعلى ..

فغنت عزة لحنها في شعر عنترة العبسى :

حييت من طلل تقادم عهده

أقوى وأقصر بعد أم الهيثم

ان كنت أزمعت الفراق فانما

زمت ركابكم بليل مظلم

فهتف بها ابن سريج : أحسنت والله يا عزة

ونزعت سكينه سوارها الثانى وطلبت الى عزة أن تلبسه ، ثم قالت

لابن سريج : غنا ..

قال : حسبك ما سمعت البارحة ..
 قالت : لا بد أن تغنينا في كل يوم لحنا ، فلما رأى انه لا يقدر على
 الامتناع ، غنى :

قالت من انت على ذكر فقلت لها
 أنا الذى ساقه للحين مقدار
 قد حان منك - فلا تبعد بك الدار -

بين ، وفى البين للمتبول اضرار
 وفى اليوم الثالث ، غنت عزة لحنها فى شعر الحارث بن خالد :
 وفرت بها عيني وقد كنت قبلها

كثير بكاء مشفقا من صدودها
 قال ابن سريج : والله ما سمعت مثل هذا قط حسنا ولا طيبا .
 ثم أمرته سكينه فغنى :

أرقت فلم أنم طسربا وبت مسهدا نصبا
 لطيف أحب خلق الله انسانا ، وان غضبا
 فلم أردد مقالتها ولم أك عاتبا عتبا
 ولكن صرمت جلى فأمسى الجبل منقضبا
 فقالت سكينه : قد علمت ما أردت بهذا ، وقد شفعاك ولم نردك ،
 وانما كانت يميني على ثلاثة فاذهب فى حفظ الله وكلاءته
 وأمرت له ولعزة بحتين « (١)

أما وقد اكتملت صورة الهاشمية الحسنة فى اطار العصر الذى يمثله
 غزل عمر فيما قالوا ، والذى أوجب مؤرخو الأدب علينا أن نرجع الى
 ديوانه اذا شئنا أن نفهم المجتمع الحجازى على حقيقته ، وأن ندرك حقيقة
 الصلة بين الرجال والنساء فيه -

أما وقد اكتملت هذه الصورة ، فان لنا بعد ذاك وقفة هنا ، نحاول
 فيها أن تتبين وجه الحق فى كل هذا الذى قيل ..

عود على بدء

ونجروء بادية ذى بدء ، على معاودة النظر فى تلك المسكلمات التى قررت أن المجتمع الحجازى قد كان حقا على ما يصوره غزل « عمر » وأمثاله وليست رغبة الدفاع عن بنت الحسين ، هى التى تدفعنا الى هذه المعاودة ، بقدر ما يلزمنا بها الحرص على الحق كيف كان

أصحح ان ذلك المجتمع قد انصرف عن الاشتغال بالأمور العامة التى أبعد عنها عمدا ، وعكف على حياته الخاصة بيلبها فى العبث والمجون ؟.. بعض هذا يمكن أن يقال . بل كله أيضا يمكن أن يقال فى طائفة بعينها من الشباب المترفين ، لو أحصيناهم فى كتب التاريخ الأدبى لما جاوزوا العشرات ، وبقيت الى جانبهم كثرة جادة ، شاركت فى الحياة العامة ، فكريا وسياسيا وحربيا مشاركة وعاما التاريخ

ومن الاسراف أن يقال ان الحجاز كان بمعزل عن الشؤون الكبرى للدولة على النحو الذى وصفه مؤرخو الأدب ، فى تعليلهم لشيوع المجون وازدهار فن الغناء فيه ، وان التاريخ يشهد بأن الحجاز كان أيضا مركز المعارضة القوية التى دوخت الأمويين وكلفتهم أفدح الأثمان ، ولم تمكنهم من الأمر الا بعد أن رجموا الكعبة بالمنجنيق . وقد اعترف الأستاذ الدكتور طه بأن « الشباب الحجازى جاهد جهادا عنيفا فى سبيل الاحتفاظ بمنزلته التى تركها له أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فما كانت ثورة ابن الزبير ، وما كانت ثورة الحرة ، وما كان خروج الحسين ابن على الا مظاهر لهذا الجهاد ... ولكن هذا الشاب الحجازى لم يوفق » ومع التسليم بأن هذه الثورات المتتابعة قد أخمدت ، الا أن من الحق أن نذكر أن ثورة ابن الزبير مثلا ، لم يقض عليها الا سنة ٧٣ هـ ، أى

بعد توبة عمر بن أبي ربيعة ، التي تابها وهو في الأربعين من عمره على ما قال مؤرخوه ، والمعروف انه ولد في أخريات ذى الحجة من سنة ٢٣ هـ -- يوم مقتل الفاروق عمر بن الخطاب -- فيكون قد بلغ الأربعين في سنة ٦٣ هـ ، والحجاز كله يناصب بني أمية العداء ، ويأبى أن يقر لهم بالخلافة ، وحركة ابن الزبير في عنفوانها ، وستظل كذلك الى عام ٧٣ هـ أى بعد توبة عمر بنحو عشر سنين -- فكيف يهون التسليم بأن عمر يمثل المجتمع الحجازي في تلك الفترة ؟.. وان الحجاز على عهده كان بمنزل عن الحياة العامة ، منصرفا الى اللهو والمجون ؟.. وأى شيء تكون حركة « ابن الزبير » التي استمرت بعد توبة عمر نحو عشر سنين ، تقض مضاجع الأمويين وتجسهم في الشام وتزلزل الأرض من تحتهم ؟.. أى شيء تكون هذه الحركة التي كانت غولا ، فيما وصف الأستاذ العلايلي « وكادت تبتلع الدولة الأموية والعنصر الأموي » (١)

ووقعة الحرة ، التي أشار اليها أستاذنا الدكتور طه ، قد كانت في سنة ٦٣ هـ وفيها بلغ « عمر » الأربعين من عمره ، واختتم مرحلة المجون والطيش ، أو كما قالوا : « ختم عهد الفتك وبدأ عهد النسك » (٢) فاطلاق القول بأن الحجاز لم يشارك في الحياة السياسية ، زمان الأمويين ، يجب أن يؤخذ في كثير من التحفظ والحرص ، والا فقد كان الحجاز ، ابان عمر وأمثاله ، مركز المعارضة القوية التي تزعمها الحسين ، ثم عبد الله بن الزبير من بعده ، وقد وقفت مكة تجاه الأمويين في دمشق ، موقف الخصم العنيد ، وثبتت في المعركة سنين عددا قبل أن تهزم بعد حصار مجهد (٣) . كما ظل لها بعد ذلك كله ، نفوذها الروحي ييسر ظله على الدولة الكبرى

وكان هذا النفوذ من العوامل التي قضت آخر الأمر على دولة بني أمية ، وأقامت الدولة العباسية ، على دعوة دينية ، ترد الأمر الى أصحابه

(١) أشعة من حياة الحسين : ٢٨

(٢) الاغانى : ٧٧/١ ط دار الكتب

(٣) تاريخ الطبرى : الجزء السابع ط مصر

من آل البيت ..

وازدهار الفزل والفناء فى مكة والمدينة فى ذلك العصر ، أمر لا يملك أن نشك فيه ، ولكن الذى نشك فيه ، هو أن هؤلاء الشعراء الفزليين ، يصورون بشعرهم الماكن حياة ماجنة !..

أصحح أن الحجاز كان اذ ذاك « قد أسلم الى طوائف من الشعراء والمغنين والمخنثين ، من بينهم عمر ، استأجرهم الأمويون للقضاء على النفوذ الروحى الخطر ، لعاصمتى الدين » على ما ذهب اليه الأستاذ العلايلى ؟ (١)

لا سبيل الى انكار أن السلطة الدينية للحجاز كانت خطرا يقدره الأمويون . لكن تقديرهم لخطر النفوذ الدينى للحجاز ، لم يكن بحيث ينسيهم انهم بعد فى حاجة اليه لتأيام الدولة التى ورثت ملك الأباطرة والأكاسرة والنرايين باسم الاسلام ، فالقضاء على الحرمة الدينية لمكة والمدينة ، يؤدى فى الوقت نفسه الى القضاء على الدولة التى يتولى بنو أمية أمرها . والثابت تاريخيا ان الأمويين كانوا يعتمدون على عصبية القبيلة فى منازعتهم لبنى هاشم ، لكن هذا لم يمنعهم قط عن الاعتماد على الصفة الدينية فى مواجهة الأعداء المتربصين على الحدود ، وفى استنفار المسلمين للجهاد ، فى بلاد الروم والمغرب الافريقى

وقد ظل الخلفاء منهم حريصين على الخروج الى مكة فى موسم الحج عاما بعد عام ، استظهارا بهذه القوة الروحية التى كانوا فى حاجة اليها وهم يحكمون ويحاربون ويفتحون باسم الدين الاسلامى . والأستاذ العلايلى يعرف قبل أن أعرف ، ان القولة الخبيثة « بأن المروانيين فكروا فى صرف الناس عن المقدسات الاسلامية التى تنزل من الاسلام منزلة الشعيرة ، بانشاء المسجد الأموى بأبتهه العظيمة فى دمشق ، وان هذه أيضا كانت نية عبد الملك بن مروان بأناقته فى تشييد المسجد الأقصى » هذه القولة الخبيثة لم يقلها الا عابو الاسلام « الأب لاماسن اليسوعى »

(١) أشعة من حياة الحسين : ٢٩

ولم يؤيدها بشاهد أو نص . فخوف الأمويين من نفوذ مكة والمدينة
الروحي ، يجب ألا يبعد بنا الى ذلك الظن المتماذي ، بل يجب ألا ينسينا
حاجتهم الى الاستظهار بما يخافون منه . كما ان التسليم بأنهم مكنوا
لأبناء المهاجرين والأنصار من حياة الفراغ والترف ، لا يجوز أن يذهب
بنا بعيدا الى القول باستتجار طوائف المخنثين والشعراء الماجنين لافساد
مكة والمدينة ، والا فقد كان من هؤلاء الشعراء ، من هو من صميم بيوت
الأنصار وحزب الامام علي ، كالأحوص ، وعبيد الله بن فيس الرقيات .
وحكاية يزيد والأخطل ، لا تعين علي ما ذهب اليه الأستاذ ، فما هي الا
حكاية فردية كان «يزيد» فيها موتورا لا بادئا واترا . هي كما رواها المبرد
في كتاب الكامل : « أراد عبد الرحمن بن حسان بن ثابت أن يكيد له
فشبيب بأخته رملة بنت معاوية وقال فيما قال :

رمل هل تذكرين يوم غزال

اذ قطعنا مسيرنا بالتمنى ؟

اذ تقولين : عمرك الله هل شيء

وان جل ، سوف يسلبك عنى ؟

فغضب يزيد ، وأمر كعب بن جعيل التغلبي بهجاء الأنصار ..

فقال كعب : أ أهجو الأنصار ؟.. أرادى أنت الى الكفر بعد
الاسلام ؟.. ولكن أدلك على غلام من الحلى نصراني ، كأن لسانه لسان
نور - يعنى الأخطل - فما كاد الأخطل يقول رائيته المشهورة ، في هجاء
الأنصار :

خلوا المكارم لستم من أهلها

وخذوا مساحيكم بنى النجار

ذهبت قريش بالسماحة والندى

واللؤم تحته عمائم الأنصار

حتى ثار الأنصار مغضبين ، ودخل النعمان بن بشير الأنصاري على
معاوية فحصر عمايته عن رأسه ثم قال : يا معاوية ، أترى لؤما . فقال :

ما أرى إلا كرما . واستطرد النعمان منشدا :
 معاوىَ الا تعطنا الحق تعترف
 حتى الأزد مسدولا عليها العمائم
 أيشتمنا عبد الأراقم ضلّة
 فماذا الذى تجدى عليك الأراقم ؟ ..
 فما لى ثار دون قطع لسانه
 فدونك من ترضيه عنك الدراهم
 قالوا : فأمر معاوية بدفع الأخطل اليه ليقطع لسانه ، لولا انه استجار
 بيزيد ، فما زال بالنعمان يسترضيه ويعتذر اليه حتى كفَّ .. « (١)
 فالقصة — كما رواها المبرد — لا يمكن أن تنهض دليلا على دعوى
 عامة ، تقول بأن الأمويين منذ عهد معاوية كانوا يستأجرون الشعراء
 لاقضاء على الطبقة الدينية في المدينة ، بل لعلها أولى بأن تشهد بأن النفوذ
 الدينى للأنصار ، كان من القوة بحيث يغلب سلطان بنى أمية ، ويجعل
 شاعرا مثل كعب ، يأبى أن يجيب يزيد ، ويرى في هجائهم ردا الى الكفر
 بعد الاسلام ، كما تشهد بأن معاوية لم يرض قط عن موقف يزيد ، بل
 أمر بأن يدفع الأخطل الى النعمان ليقطع لسانه
 ولست أدري كيف فات الأستاذ العلايلي مثل هذا ، وانه ليعلم أن
 الاباحية المأجنة لم تقتصر على المدينة ومكة ، بل توغلت في دمشق ذانها ،
 ولم يعصم منها أمثال يزيد بن معاوية ، والوليد بن يزيد ، فهل يا ترى
 استأجر أهل مكة والمدينة ، من أغرى خلفاء بنى أمية بالمجون والنعث ؟..
 وهل استأجروا « الأحوص الانصارى » ليقول فى عاتكة بنت عبد الله
 ابن يزيد بن معاوية ، زوجة عبد الملك بن مروان :
 يا بيت عاتكة التى أتعزل
 حذر العدا ، وبه الفؤاد موكل

(١) رغبة الامل من كتاب الكامل : ٢٠٦/٢ وما بعدها

انى لأمنحك الصدود واننى

قسما اليك ، مع الصدود لأميل (١)

أو هل استأجروا « وضاح اليمن » ليقول فى « أم البنين » ما قال مما
ننقل بعضه فى فصل يلى ؟

وماذا عن غزل عمر نفسه ، بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وأخته
وغيرهما من سيدات البيت الأموى ؟

ان المجون قد استشرى فعلا فى الحجاز ، لكنه استشرى كذلك فى
الشام ، ورأيناه يستشرى من بعد فى بغداد . والأستاذ الدكتور طه نفسه
يقرر « ان شباب الحجاز لم يكن يلهو الا بمقدار وكانت مكاتبة الدينية
والاجتماعية وخوفه من الخلفاء يعصمانه من مجاوزة الحدود ، اذا شباب
بنى أمية فلم يكده يعرف اللهو حتى اندفع فيه الى غير حد ، لا يخشى
مراقبة ولا يحفل بسلطان » (٢)

ولو كان الخلفاء هم الذين يغزون شباب الحجاز بالمجون ويعينونهم
عليه ، لما كان ثمة خوف يعصمهم من مجاوزة الحدود ، ولفرض الخلفاء
رقابتهم الصارمة على شباب بنى أمية ، كى يعصموهم بـ لا شباب الحجاز
من مجاوزة الحدود !

وقد نقلت لنا فعلا ، أخبار تشهد بأن خلفاء بنى أمية كانوا يندخلون
أحيانا ، ليردعوا شعراء الغزل الماجن فى الحجاز ، اذا تمادوا فى عبثهم ،
وجاوزوا الحدود ، وان أهل المدينة أنفسهم كانوا يلجئون الى الخليفة
الأموى أحيانا ، ليحمى نساءهم من ألسنة الشعراء .

ففى رواية لمحمد بن سلام ، نقلها أبو الفرج فى أغانيه : « ان الأحوص
كان ينسب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة ، ويتغنى فى شعره معبد
ومالك ، ويشيع ذلك فى الناس ، فنهى فلم ينته ، فشكوه الى عامل

(١) سبط اللالى للبكرى : ٢٥٩/١
(٢) حديث الاربعاء : ٢٣٧

سليمان بن عبد الملك على المدينة ، وسأله الكتاب فيه إلى سليمان ففعل .
فكتب سليمان إلى عامله يأمره أن يضربه مائة سوط ، ويقيسه على
البلس (١) للناس ، ثم ينفيه إلى دهلك - وهي بلدة حرجة حارة ، تقع
في جزيرة في بحر اليمن ، بين بلاد اليمن والحبشة ، وكانت منفى لمن
يسخط عليه بنو أمية - فنفذ الوالي أمر سليمان في الأحوص ، ولبت
الشاعر في منفيه طوال عهد سليمان ، فلما مات وخلفه عمر بن عبد العزيز
من بعده ، كتب إليه الأحوص ، يستعطفه ويستأذنه في القدوم ، ويمدحه
بتصيدة استمتع فيها بما بينهما من قرابة فقال :

أيا راكبا أما عرضت فبلغن

هديت ، أمير المؤمنين رسائلني

وقل لأبي حفص إذا ما لقيته

لقد كنت نفاعا قليل الغوائل

وكيف ترى للبحش طيبا ولذة

وخالك أمسى سوتقا في الحبال

« وأتى رجال من الأنصار عمر بن عبد العزيز ، فكلّموه في الأحوص ،
وسأله أن يدعه يخرج من منفيه ، وقالوا له فيما قالوا : قد عرفت نسبه
وموضعه وقديمه ، وقد أخرج إلى أرض الشرك فنطلب اليك أن ترده إلى
حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودار قومه . فسألهم عمر : فمن الذي
يقول :

فما هو إلا أن أراها فجاءة

فأبته حتى ما أكاد أجيب ! ..

قالوا : الأحوص ..

قال : فمن الذي يقول :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر

بأبياتكم ما درت حيث أدور

(١) البلس جمع البلاس ، وهو البساط من شعر - معرفة

وما كنت زوّاراً ولكن ذا الهوى
إذا لم يزر لا بد أن سيزور

قالوا : الأحوص ..

قال : فمن الذى يقول :

كأن « لبنى » صير غادية
أو دمية زيت بها البيع
الله بينى وبين قيّمها
يفر منى بها ، وأتبّع

قالوا : الأحوص ..

قال عمر : بلى ، الله بين قيّمها وبينه ، فمن الذى يقول :

ستبلى لكم فى مضمّر القلب والحشا
سريرة حب يوم تبلى السرائر

قالوا : الأحوص

قال : ان الفاسق عنها يومئذ لمشغول ، والله لا أردّه ما كان لى سلطان .
فبقى هناك الى ما بعد وفاة عمر « (١) »

وما دام كتاب « الاغانى » هو مرجعنا الأول فى أخبار شعراء المجون
بالحجاز فى النصف الأول من العصر الأموى ، فيجب ألا نقبل مروياته
عن عبث عمر وأضرابه ، الا ومعها المرويات الأخرى التى تدل على تحرج
المجتمع الحجازى من اسراف المسرفين منهم ، وتدخل خلفاء بنى أمية ،
حين يجاوز اسرافهم الحدود .



وأيا ما كان حال ذلك المجتمع ، فليس يهون علينا أن نتصور ان
الصلة بين رجاله ونسائه يجب أن تلتبس عند زعيم الغزليين عمر بن أبى
ربيعة ، فان مجتمعا هبط من التحلل الى ذلك الحضيض الدانى ، وتهاون
فى عفة النساء وطهارة الأرحام الى حد الاهدار ، وأباح لمثل عمر بن عبد

(١) الاغانى : ٢٤٨/٤ ط الدار

العزیز ومصعب بن الزبیر ، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبی بکر الصديق ،
أن يتزوجوا من معشوقات ابن أبی ربیعة وبطلات مغامراته ، مجتمع كهذا
لا يمكن أن تسمح له الحياة بالبقاء ، أو يأذن له التاريخ بمكان فيه ولو
على الهامش

وأيا ما كانت عزلة المجتمع الحجازی عن الشؤون العامة للدولة ، فإن
هذه العزلة المدعاة ، لم تعطل صلات المصاهرة ما بين الشام والحجاز ،
ومن شاء فليرجع الى « نسب قريش » ليقف على مدى نشاط هذه
المصاهرة التي ربطت خلفاء بنی أمية ببنات هاشم ، رباطا لا ينقسم ،
ووصلت ما بين الحجاز والشام بالصلة التي لا تنحل ، وساطت دماءهما
حتى ما تتزايل ، وقد بلغت الدولة العربية في النصف الأول من العصر
الأموي أوج قوتها ، فكيف يتصور العقل أن تقوم لهذه الدولة قائمة ،
لا تحميها من أعدائها فحسب ، بل تمكن لها من غزو القسطنطينية وفتح
المغرب الافريقي ، وهي التي أتلفها النحل ، وطاب لها أن يشهر « عمر »
بخير نسائها ، وأن يرفع المغنون عقائرهم بغزلياته فيهن ، في البلد الحرام
مهد الاسلام ، وفي المدينة دار الهجرة ، قبل أن يبلى قميص رسول الله
صلى الله عليه وسلم !

لقد صدقنا ان الخصومة الحزبية كانت تتخذ من أعراض النساء هدفا
للكيد وسلاحا في المعركة ، صدقنا أن يقول عبد الرحمن بن حسان بن
ثابت ما قال في رملة بنت معاوية ، وربما أمكن كذلك أن نصدق أن يقول
عبيد الله بن قيس الرقيات ، في أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ،
وزوجة الوليد بن عبد الملك من قصيدة له يمدح بها مصعب بن الزبير :

الا هزأت بنا قرش	سيرة يهتز موكبها
رأت بي شيبة في الرأ	س منى ما أعيبها
ومثلك قد لهوت بها	تمام الحسن أعيبها
لها بعل غيور قا	عد بالباب يحجبها
يراني هكذا أمشي	فيوعدها ويضربها

ظلمت على نمارقها
أحدثها فتوة من لى
فدع هذا ولكن حا
الى أم البنين متى
أتتى فى المنام فقل
فلما أن فرحت بها
شربت بريقها حتى
وبت ضجيعها جذلا
فكانت ليلة فى النو

أجل ربما أمكن أن نصدق أن عبيد الله قال هذا في أم البنين ، ثم عاد فأرضأها « وبلغ منها مبلغا حسنا حتى شغفت به وكسبت له أمان عبد الله بن مروان » بشفاعته لديها من عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ! ولكن الذي لا يهون أن نصدفه ، أن يدع المجتمع الاسلامى عمر بن أبى ربيعة يشهرّ بشريفات قزيش ، وبنات الأئمة والخلفاء ، عن غير خصومة حزبية ، وأن يسيح له أن يجعل من بيوتهن — بل من مفادعهن — مجالا لمغامراته ، ثم يطرب اذ يسمع المغنين والمغنيات يشدون بهذا الغزل الماجن !

كلا وكلا ...

وانما الذى يصح عندنا ، هو أن غزليات عمر وأمثاله ، كانت هزلا لا شىء من الجد فيه ، وان مغامراته وقصصه الغرامية كانت من نسج الخيال وليست من الواقع فى شىء ، وقد عرفه مجتمعه يقول ما لا يفعل ، فتركه يهذى بالشعر كما شاء ، دون أن يخطر له أن بنات هاشم ونساء فريش ، قد شغفن به حبا ، وأبحنه ما لا يباح !

واذا كان « عمر » قد اختار أسماء غادات عصره وحسان قومه ، لقصصه وقصائده ، فما كان هذا الصنيع بالذى يمس سمعتهم أو يؤذى كرامتهم فى مجتمع يعرف « عمر » شاعرا يهيم فى وادى الخيال ، يتصيد

منه مشاهد وصورا ليست من الواقع في شيء أو بعض شيء : ومن ثم لم تضق الحسان باختيار عمر أسماءهن في قصائده التي معجّد فيها الجمال وهام بالحسن ، بل ربما وجدن في ذلك الصنيع مظهر اعتراف بجمالهن ، وإعلان عن ملاحظتهن ، وهن مطمئنات الى أن المجتمع لا يأخذ قصص عمر مأخذ الجد ، ولا يسيء الظن بمن اختار عمر اسمها لقصيدة من قصائده وأى حسناء لا يفرها الثناء ؟

أى حسناء لا يزدهيها ، أن يقترن اسمها بقول عمر :

ذات حسن ان تغب شمس الضحى

فلنا من وجهها عنا خلف !

أجمع الناس على تفضيلها

وهوهم في سوى ذاك يختلف

أى حسناء ، لا يطريها أن تردد معازف المغنين اسمها في مثل قوله :

ليت هنذا أنجزتنا ما تعد

وشفت أنفسنا مما تجيد

واستبدت مرة واحدة

انما العاجز من لا يستبد !

مجرد أسماء ، حفت بها جمال من يحملنها ، وهن بمنأى عن الريبة

وسوء الظن

أجل مجرد أسماء ، وربما هام عمر مع خياله ، واشتط به الوهم ،

فتمثل صاحبة الاسم في جوه العاثر ، وتمادى في الخضوع لسيطرة

شخصيتها الحقيقية على خياله ، فجاءت صورتها في قصصه ، تشي بمعالم

هذه الشخصية الحقيقية ، واذا ذاك كان المجتمع ينكر ، ويغضب ، ويوقفه

عند حده فيقف !

فعل ذلك حين هدده بنو تيم بالشر ، لما رأوا في تغزله باسم عائشة ،

ملاحم من بنت طلحة ...

وفعل ذلك حين هدده بنو أمية بالويل ، عندما رأوا في تغزله باسم

فاطمة ، ملامح بنت عبد الملك !
 واستحيا عمر من قدامة بن موسى ، حين شاقه أن يرى أخته زينب ،
 بعد أن تغزل باسمها على السماع
 وأقسمت « الثريا بنت علي » للوليد بن عبد الملك أن عمر كان عفيفا ،
 وهو الذي ملأ ديوانه باسمها ، وترك للرواة من بعده أن ينسجوا من
 قصائده فيها أقاصيص وحكايات !
 وكف عن التعرض لزوجة أبي الأسود الدؤلي ، وكانت جميلة ، فأراد
 أن يكلمها فعاتبه أبو الأسود مرة فلما عاد زجره بقوله :

وانى ليثني عن الجهل والخنا
 وعن شتم أقوام خلأق أربع
 حياء ، واسلام ، وبقياء ، وأننى
 كريم ومثلى قد يضر وينفع
 فستان ما بينى وبينك أننى

على كل حال أستقيم وتطلع
 فلما لم يرعو « عمر » واعترض زوجة أبي الأسود حين عادت الى
 المسجد ، خرج معها أبو الأسود مثمتلا على سيف ، فما كاد « عمر »
 يراها حتى أعرض عنها مثمتلا :
 تعدو الذئاب على من لا كلاب له

وتتقى صولة المستأسد الحامى (١)
 كلا .. لم يكن المرعى مباحا لعمر يقول فيه ما يقول ويفعل ما يفعل ،
 دون أن يتصدى له من يزجره ويرده الى التزام الحدود فيرعوى ، ولو
 لم يرعو لخرج له بنو تيم وغير بنى تيم بالسلاح ، ولأنفذ الحجاج وغير
 الحجاج وعيده فيه ، أو لاستعدى أهل الحجاز عليه الخليفة بدمشق ، كما
 فعلوا حين شبب الأحوص بنساء المدينة — عن غير صلة — ونهى فلم ينته
 كما لم يكن المرعى مباحا لغير عمر من شعراء الغزل الماجن ، وقد نقل

أستاذنا الدكتور طه قصة « وضاح أليمن » الذي دفن حيا ، بعد أن تغزل .
بأم البنين ..

وأشفق الحارث بن خالد المخزومي (١) من الزواج بعائشة بنت طلحة .
بعد أن تغزل فيها ، حتى لا تقول قريش ان غزله فيها كان لريبة (٢)
وكاد ابن أبي ربيعة نفسه ، يلحق بالأحوص ، لولا أن تداركته رحمة ،
ففى أخبارهم أن سليمان بن عبد الملك حج بالناس وهو خليفة ، فاستدعى
عمر وسأله : أأست القائل :

فكم من قتيل ما يبىء به دم
ومن غلق رهنا اذا لفته منى
ومن مالى عينيه من شىء غيره
اذا راح نحو الجمرة ، البيض كالدمى
أوانس يسلبن الحليم فؤاده
فيا طول ما شوق ويا طول مجتلى !
قال : نعم . قال سليمان : لا جرم والله لا تحضر الحج العام مع الناس ..
وأخرجه الى الطائف (٣)

لكن المأساة أن أكثرنا قد صدقوا كل ما قال عمر ، وصدقوا معه
أولئك القصاصين الذين راحوا ينسجون الحكايات حول هذه القصيدة .
أو تلك من غزلياته ، وهى قصص لا نشك فى أنها اخترعت بأخرة ، كما
قال الأستاذ الدكتور طه حسين بحق «

وقد عاد بعد الذى قرره وأكد من تمثيل شعر عمر لعصره ، ولصلة
النساء بالرجال فى مجتمعه ، عاد يؤكد أن « صلة عمر بأخت عبد الملك
وبنته ، وبسكينة بنت الحسين ولبابة بنت عبد الله بن عباس ، وعائشة بنت .

(١) هو الحارث بن خالد بن العاصى بن هشام بن المغيرة المخزومي .
انظر نسبه وحديثه مع عائشة ، فى (نسب قريش : ٣١٣)
(٢) الاغانى : ٣٢٧/٣ دار الكتب - وانظر معه (نسب قريش : ٣١٤)
(٣) الاغانى : ٦٨/٩ الدار

طلحة ، كانت طاهرة كل الطهر ، بريئة كل البراءة من الاثم .. كانت لفظية
غير « (١) »

على حين أخذ « الدكتور زكي مبارك » كل هاتيك الأخبار والقصص
والمغامرات أخذاً لمّا ، وصدقها غير مرتاب فيها ولا منتظن ، يقول عن
عمر بن أبي ربيعة :

« .. بلى انه رجل خليع ، وفائن المنظر أخاذ ، فلا بد أن يكون شعره
كذلك فاتنا أخذاً . وضاحك الثغر بسام ، فيجب أن يكون شعره كذلك
ضاحكا بساما .. »

« الا فليخل شعره من التوجع ، وليسلم نسيه من الجزع ، ولينرك
الهم لقوم سواء ، فما كان بالمحزون ولا المهموم »

« علام يصف الليل ويشكو كواكبه البطيئة ونجومه المشكولة وفجره
المفقود ، وما كان الرجل في التفاف النساء حوله واقبالهن عليه ، بالذى
... فلقد كانت تعده المرأة بالزيارة في جنح الليل ، فلا تكاد تصل الى
منزله حتى تجد غيرها قد سبقتها اليه ، فتعود آسفة حزينة ! »

« علام يشكو البين ، وما روعه نذير بالفراق الا بشره بشير بانتلاق ؟
أم كيف يكيه الوداع وهو الذى ما شيع حبيبا الا استقبل حبيبا ،
ولا غابت عنه شمس الا أشرق عليه شمس ! (٢) »

وماذا عن « سكينه بنت الحسين » ؟

ماذا عنها ، بين « أخبار الملاح » في حديث زكى مبارك عن « حب ابن
أبى ربيعة وشعره » ؟
بدأ فقال :

« لا يغضب قوم ان ذكرنا انها كانت — فى عفافها — نزقة طائشة ،
تؤثر الخفة على الوقار ، وتهوى أن يخلد حسننها فى قصائد الشعراء ..
... وما أظن هذه السيدة سلمت فى صلتها بابن أبى ربيعة ، من متورع »

(١) حديث الاربعاء : ٢٩٥ .
(٢) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٨١ .

برميها على طهرها بالخلاعة والمجون .. »

ثم قرر - قبل أن يجرد قلمه لرسم صورتها - أنه يضم الحب والاجلال لتلك السيدة النبيلة . لماذا ؟ « لأنها قدرت نعمة الله عليها فدلّت وتاهت بما وسّمت به من الملاحاة والجمال ، وعاشت في رعاية الحسن والحب غير حافلة بأوضاع الاجتماع ، وكان فيها بلا ريب ما ينهى مثلها عن التبذل في مخالطة المغنين وملابسة الشعراء » (١)

وآية اجلاله لتلك السيدة النبيلة ، وحبها اياها ، أنه تحدث عن بيتها بما يؤذن انها جعلت منه ملاذ متعة للشعراء الما جنين : « فكانت سياسة الذوق في اختيار الوصائف ، وكان بيتها لذلك خفيف الظل على الأدباء والشعراء » (٢)

ثم تمادى به القول فجعلها - جعل بنت الحسين - مرقّهة تجعل «بيتها مألفا للمغنين . وتؤثر ترفيه الناس بما تستطيع تقديمه اليهم من متع الغناء .. »

« ولو صحت قصة الفرزدق معها ، لكانت دليلا على تسامح تلك السيدة وغفرها تهافت الشعراء على ما كانت تملك من الموندات الحسان ، والشاعر لم يخلق الا ليشقى بالحسن ويتعذب بالجمال ، وبقدر احساس السيدة سكيّنة لمحنة الشعراء المسرفين وعلمها بما كتب عليهم من سفه المنى وطيش الأحلام ، كانت ترق وتلين كلما شهدت اخلاصهم لما خلقوا له من عبادة الطرف الساحر والقدر الرشيق ! » (٣)

ثم ماذا ؟

ماذا بعد المرقّهة !

بعده ما عفّ قلم الدكتور زكي مبارك نفسه عن ذكره ، فذلك حيث يقول :

« ولها مع ابن سريج أخبار رأينا أن نضرب عنها صفحا لما في مقدماتها

(١) حب ابن أبي ربيعة وشعره : ١٨٢

(٢) حب ابن أبي ربيعة وشعره : ١٨٨

(٣) حب ابن أبي ربيعة وشعره : ١٨٧

من مآثم تقف عندها حدود الأدب المكشوف ! » (١)
ثم كانت خاتمة الحديث عن السيدة التي أجلتها : « وفيما ذكرناه عن
السيدة سكيئة غنية لمن يريد أن يعرف كيف تمثلها الأدباء الأقدمون ،
أما صورتها في رءوس الصوفية ، فهي صورة القديسة التي تسيطر على
الأرض والسماء ، وكل حزب بما لديهم فرحون »
وهي خاتمة تنسق مع المقدمة التي بدأ بها الحديث عن بنت الحسين
قائلاً :

« وأشرنا في كتاب « الأخلاق عند الغزالي » عند الكلام عن الباطنية ،
الى أن أكثر ما يحتل رءوس المسلمين من الأفكار والعقائد ، ليس الا أثراً
للدعوات المتعددة التي قام بها العباسيون في الشرق ، والفاطميون في
الغرب ، وان الدعاة نجحوا في حشو تلك الرءوس الجوفاء (!) بالخرافات
والوساوس والأضاليل ، وضربنا المثل بالمعبودات الصغيرة التي تسكن
سماء القاهرة من عترة سيدنا الحسين ! »

وصورة السيدة سكيئة في رءوس المسلمين (الجوفاء) هي بعض بيت
الخرافات والأضاليل ..

أما صورتها التي جرّد الدكتور زكي مبارك قلمه لرسمها ، صورة
المرفّهة ، فهي « صورة طبيعية لاغرابية فيها ولا شذوذ ، ولو كتب عنها
فصل في مجلة فرنسية أو انجليزية أو ألمانية ، لتلقاه أهل الغرب بالقبول ،
وعدوا حياتها المرححة دليلاً على تأصل الحضارة في تلك الأسرة - الهاشمية
النبوية العلوية - التي سادت الشرق زمناً غير قليل ! »

والله انه ليظلم الغرب بهذا ..

والا فلو أن مثل هذه الصورة التي رسمها لسكيئة ، نشرت في مجتمع
هوليوود ومونمارتر ، لعدت دليلاً على مدى هبوطه وانحلاله ، وما قضية
المجلة الأمريكية التي نشرت بعض فضائح غواني هوليوود ، عنا
ببعيد ..

لكنها عند « الدكتور زكي مبارك » دليل تأصل الحضارة في الأسرة

(١) حب ابن أبي ربيعة وشعره : ١٩١

الهاشمية النبوية !

وهى ، كذلك ، دليل جاه للطبقة العالية من قريش ، أما العامة والمغمورون فشأنهم غير ذلك

نقل الدكتور زكى مبارك في كتابه ، ان رجلا من بنى تميم وُلدت له جارية حسناء ، فقال : كأنى بها وقد كبرت فشيب بها عمر بن أبى ربيعة وفضحها ونوه باسمها كما فعل بنساء قريش ، والله لا أنمت بمكة ورحل بابنته الى البصرة ، ليتقى لسان عمر ! (١)

ولو أنه كان علويا شريفا ، لطرب لغزل عمر في نساء بيته ، كما زعموا أن الامام جعفر الصادق بن محمد بن على بن الحسين عليهم السلام ، أنشد احدى غزليات عمر - المقول في رواية انها في سكينه - فطرب وارتاح ، حتى اذا بلغ قول عمر :

ليس بين الحياة والموت الا

أن يردوا جسامهم فتزما

جعل الامام يقول : عجّلوا البين ، أفلا يكون قرينة ؟ أفلا يودعون صديقا ؟ أفلا يشدون رحلا ؟ ... حتى جرت دموعه ! (٢)

وكذلك كانت هذه الصورة التى فتت الدكتور زكى مبارك ، سمة الحرائر عنده !

أما الاماء المغنيات فلهن صورة أخرى ، يمثلها عنده الخبر الذى نقله من كتاب الأغاني عن « جميلة » المغنية « أنها لما قضت حجها سألهما المكيون أن تجلس لهم مجلسا ، فقالت : للغناء أم للحديث ؟ قالوا : لهما جميعا . فقالت : ما كنت لأخلط جدا بهزل . وأبت أن تجلس للغناء . فقال عمر بن أبى ربيعة : أقسمت على من كان في قلبه حب لاستماع غنائها ، الا خرج معها الى المدينة فاني خارج »

وتبعوها الى المدينة ، حين أضرت على ألا تخلط جدا بهزل ، فتجلس للغناء في مكة وقد خرجت اليها حاجة !

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٢٨

(٢) الأغاني : ١٧١/١ دار الكتب

ولو كانت حرة شريفة ، كبرت الحسين ، لكان لها شأن آخر ...
ولا تعجب اذ يتمثل « الدكتور زكى » السيدة سكيانة ، « نزقة
مأثشة ، مبتذلة في مخالطة المغنين وملابسة الشعراء ، حريصة على الترفيه
عنهم » وقد قرأ فيما قرأ من أخبارها أن زوجها مصعب دخل اليها مودعا ،
حين تهيأ للخروج الى عبد الملك ، فصاحت من خلفه : وا حزناه عليك
يا مصعب ! فالتفت اليها وقال : أو كل هذا لى فى قلبك ؟ قالت : أى
والله ! وما كنت أخفى أكثر ! فقال : لو كنت أعلم أن هذا كله لى عندك
لكانت لى ولك حال »

أجل لا تعجب ، فقد مسخت القيم عند صاحب « حب ابن أبى ربيعة »
وانعكست الأوضاع فى تقديره ، فصار هذا الضبط العاطفى - حتى فى
مخدع الزوجية - دليل نزق وطيش ، مثله مثل التبذل الماكن الذى عده
مظهر أصالة فى أسرة سكيانة ، وانحرج الخاشع الذى عده سمة القيان
الاماء ، فى جميلة المغنية

ولا تسأله أين كان بنو هاشم ، وأين كان الامام زين العابدين ، وعمر
يرفع عقيرته بالغلز فى سكيانة ، وبينها قد صار « مأثفا للمغنين ملاذا
لشعراء المخلصين لما خلقوا له من عبادة الطرف الساحر والقدر الرشيق »
فمثل الامام زين العابدين من لا يعضب لأخته حين غضب « ابن أبى عتيق »
- فيما نقل الدكتور (١) - لابنة عمه زينب بنت موسى الجمحية ، لما
تعزل فيها عمر على السماع ، فرد عليه عمر :

لا تلمنى عتيق حسى الذى بى

ان بى يا عتيق ما قد كفانى

لا تلمنى وأنت زيئتها لى

أنت مثل الشيطان للانسان

ومثل بنى هاشم وآل البيت ، من لا يغضبون لابنتهم كما غضب بنو
تيم بن مرة ، وولد طلحة بن عبيدالله ، لأختهم عائشة ، وتوعدوا عمر ان

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ٥٢

هو تغزل بها أن يؤدبوه ، فأقسم لهم بالله ألا يذكرها في شعر أبدا
 مثلهم من لا يغار على سكينه ، كما غار أبو الأسود الدؤلى على
 زوجته ، أو كما غار الحجاج بن يوسف الثقفى على فاطمة بنت عبد الملك
 — وليست من ثقيف — فكتب الى عمر يتوعده بكل مكروه ان ذكرها في
 شعره ..

أجل ، لا تسأله عن هذا ، فانما يسأل من يحاسب قلمه ، ويتقى الحق
 والضمير فيما يكتب ، ويحترم عقله وعقول الناس
 وانما الذى كان يجوز أن يسأل فيه — رحمه الله — هو كيف فاته أن
 ينقل الشعر الذى قيل ان الاحوص الانصارى تغزل فيه بسكينه . فمن
 أخبرهم أن كل غزل الأحوص بعقيلة ، هو فى سكينه بنت الحسين ، وانما
 كنى عنها باسم عقيلة (١)

وقد عدده بعض أهل عصره أنسب الناس بقوله فى عقيلة :
 يا للرجال لو جددك المتجدد
 ولما تؤمل من عقيلة فى غد
 ترجو مواعد ، بعث آدم دونها
 كانت خبالا للفؤاد المقصد
 هل تذكرين « عقيل » أو انسائه
 بعدى تقلب ذا الزمان المفسد
 يومى ويومك بالعقيق اذ الهوى

منا جميع الشمل لم يتبدد ! .. (١)
 وأغلب الظن عندى ان الدكتور زكى مبارك لم يطلع على هذه الأبيات ،
 ولهم يقرأ الخبر القائل بأن عقيلة هى سكينه ، والا لأقسم بكل غال لديه ،
 ان أخبار الأحوص مع عقيلة ، كانت حقا فى سكينه ، وان ليوم العقيق
 هذا شأننا أخطر من ليلة الصورين !

(١) الاغانى : ٢٦١/٤ دار الكتب
 (١) الاغانى : ٢٥٩/٤ — دار الكتب

كلمة يجب أن يقال

لا أدع الحديث عن « بنت الحسين » في أخبار الرواة والفصاصين ، دون أن أسجل هنا كلمة الشيعة في كل هذا الذي قيل عنها ونسب اليها انهم يذهبون الى أن أكثر هذه الأخبار والأقاويل من مفتريات الأمويين وأشياعهم ويستدلون على هذا بأدلة :

منها : ما ذكره السيد الفكيكي من أن « أبا علي القالي » قد ارتجل أماليه وهو في كنف تلميذه الحكم الأموي في الاندلس ، فأملى فيها ما أملى عن « سكينه بنت الحسين » ولم يذكر شيئا من أشعار ابن أبي ربيعة التي تفزل فيها بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وبأخته أم محمد بنت مروان بن الحكم ، كما أهمل أشعار ابن أبي ربيعة في رمله وأخت الحجاج ، ولم يحفظ الا رواية الغنين المقلوبة في « سكينه » عليها السلام (١)

ومنها : ان خبر ابن سريج وحيلة أشعب معه لحمله على الفناء في دار سكينه مع عزة المغنية ، قد ورد في الجزء الخامس عشر من الأغاني ، ولم يشر اليه أبو الفرج في ترجمة ابن سريج وأخباره التي أوردتها في الجزء الثاني من أغانيه ، مما يدل على ان هذه القصة قد أدخلت عليه ، ويجوز أن يكون ذلك قد حدث بعد شراء الحكم الخليفة الأهوي كتاب الأغاني بإشارة أستاذه الشيخ أبي علي القالي بعد رحلته الى الاندلس ، مع العلم بأن كتاب الأغاني قد نشره الحكم الأموي بإشراف القالي في الاندلس ، قبل نشر نسخته الأصلية في بغداد

(١) يشر هنا الى قصيدة عمر : « قالت سكينه والدموع ذوارف » وقد قالها أبو الفرج مرة : « قالت سميدة والدموع ذوارف » وقال ان المغنين غيروها فقالوا : سكينه - وارجع في أقوال السيد الفكيكي الى كتابه « السيدة سكينه »

ومنها : أن أصحاب النهضات الهاشمية ، كانوا يرفعون صيحاتهم الاحتجاجية في وجوه ملوك بنى أمية وولاتهم ، من جرء تصرفاتهم وأحداثهم المنكرات لروح الاسلام وتعاليمه ، وقد رموا يزيد بن معاوية بالنسق ، وكفروا الوليد بن يزيد ، ولم يذكر لنا التاريخ ان الوليد أو يزيد أو معاوية ، استطاع أن يغمز في قناة الهاشميين الكرام بمثل ما في كتاب الأغاني ، ولو كان أحد الأمويين يعلم أن السيدة سكينه قد جعلت دارها ملهى ، لطبلوا به وزمروا ، وكل ما قاله معاوية للامام الحسين رضى الله عنه عند امتناعه عن الموافقة على ولاية العهد ليزيد : « مهلا عن شتم ابن عمك ، فانك لو ذكرت عنده بسوء لم يشتمك »

أما عبد المالك بن مروان ، فقد قال في حق زوج سكينه ، مصعب بن الزبير ، خصمه الألد : « لو علم ان الماء ينقص مروءته ما ذاقه » وقد سأل يوما أصحابه عن أشجع الناس ، فعدوا له عدة أسماء من أعظم شجعان العرب ، فأبى عليهم ولم يوافقهم . ثم سأله رأيه فأجاب : « هو مصعب بن الزبير ، وعنده عقيلتا قریش ، سكينه بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة » ..!

ثم حكاية ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف حين خطب سكينه ، فأنكر أهلها وغضبوا وكانت معركة — رواها صاحب الأغاني نفسه — هذه الحكاية قد تكفى لدحض فرية مجالس الطرب التي كانت سكينه رضى الله عنها في دارها وتأذن اذنا عاما لأهل المدينة « وقومها الأطياب المناجيد الغيارى ساكتون ... »



وكل هذا مما يجوز أن يقال ، فلا نراه بعيدا .. وكذلك لا نستبعد أن يكون كثير مما أضيف الى أميرات البيت الأموى ، من صنع هذه الخصومة العنيفة الجاحدة .. كتلك القصة المنكرة التي زعمت ان أم البنين — بنت عبد العزيز المرواني ، وزوج الوليد بن عبد الملك — أحبت وضاح اليمن وأحبها ، وحدث أن أرسل اليها

الوليد هدية من جوهر أعجبه ، مع خادم له : « ودخل الخادم على الملكة
 فرأى عندها وضاحا ، فأسرعت الملكة الى صندوق فأخفت فيه صاحبها ،
 ثم أخذت الجواهر من الخادم وقد رأى ما صنعت فطمع فيها . وأراد أن
 يستغل ما يعلم ، فطلب اليها أن تمنحه حجرا من هذا الجواهر ، فلما أبت
 عليه ذلك انصرف محنقا الى الخليفة فأنبأه بما رأى . فنهض من فوره ودخل
 على الملكة ، فاذا هي تتمشط ، فجلس على الصندوق الذى وصفه له
 الخادم ، وأخذ يتحدث الى الملكة فى ملاطفة حتى سألتها أن تهديه هذا
 الصندوق فلم تستطع رده . فأمر فاحتفرت بئر وألقى فيها الصندوق وهيل
 عليه التراب وسويت الأرض ، ولم يعرف أحد لوضاح خبرا ، ولم تنكر
 الملكة من زوجها شيئا »

ولوضاح هذا قصيدة فيها ، من أبياتها :

قالت : ألا لا تلجن دارنا

ان أبانا رجـل غائر

قلت : فانى طالب غيرة

منه ، وسيفى صارم باتر

قالت : فان القصر من دوننا

قلت : فانى فوقه ظاهر

قالت : فان البحر من دوننا

قلت : فانى سباح ماهر

قالت : فحولى اخوة سبعة

قلت : فانى غالب قاهر ،

قالت : فليث رابض بيننا

قلت : فانى أسد عاقر

قالت : فان الله من فوقنا

قلت : فربى راحم غافر

قالت : لقد أعيتنا حجة
فأت اذا ما هَجَّع الساهر
فاسقط علينا كسقوط الندى

ليلة لا ناه ، ولا زاجر ! ..
والقصة مسرحها قصر الخلافة بدمشق ، وليس في مكة والمدينة ،
المتين استأجر لهما الأمويون الماجين والمختين لاهداء حرمتها الدينية ،
ولافساد الشباب الحجازي عن فصد وعمد .. فيما يؤكد لنا مؤرخو
أدبنا ! ..



وربما عرض لنا آخر الأمر أن نسأل : متى ظهرت « سكينة » في المجتمع
طليقة متحررة ، وشاركت في التاريخ الأدبي لعصرها ؟ ..
الأخبار التي بين أيدينا ، تشير الى أنها ظهرت لأول مرة في موسم
الحج سنة ٦٠ هـ ، حين صحبت أباهما رضى الله عنه في هجرته من المدينة
الى مكة . وقد كانت اذ ذاك في ربيعها الثاني عشر أو الثالث عشر . وغير
بعيد أن تكون قد لفتت اليها الأنظار بنضرة صباها وحيوية مرحها وبهاء
طلعتها ، ولكن مهابة أبيها الحسين الامام ، كانت كافية وحدها لأن تلجم
السنة الشعراء عن التغنى باسمها في قصائد الغزل
فهل ترى حلت عقدة لسانهم ، بعد عودتها الى المدينة اثر فاجعة
كربلاء ؟ ..

المؤرخون يقررون أن المدينة كلها كانت في مأتم عام لسيد الشهداء ،
وان أمها « الرباب » قد أمضت عاما بأكمله حادة حزينة ، حتى لحقت
بزوجها الشهيد (١) ، وان « أم البنين بنت حزام بن خالد العامرية ، زوج
الامام على بن أبي طالب » . « كانت تخرج الى البقيع كل يوم ، فتبكي
أبناءها الأربعة ، أعمام سكينة ، الذين استشهدوا مع أخيهما الحسين في
كربلاء : عبد الله ، وجعفر ، وعشان ، والعباس ، بنى على بن أبي طالب

(١) تاريخ ابن الاثير (الناشر) : ٧٢/٤ - وانظر منه (منتل الحسن : ٥٣ وما بعدها)

كُرم الله وجهه ، فتلثت نهارها هناك تندب بنيتها أشجى ندبة وأحرقها ،
 يجتمع الناس اليها يسمعون منها . فكان مروان يجيء فيمن يجيء لذلك ،
 فلا يزال يسمع ندبتها ويبكى » (١)

فهل ترى كان يحدث هذا ، وسكينة تعقد مجالس الغناء في دارها ،
 وتواعد « عمر » الصوريين ذات ليلة ، استجابة لرغبة نسوة شاقهن مجلس
 ابن أبي ربيعة ؟ ..

هل كان مروان بن الحكم ، يسمع أم البنين تندب أعمام سكينة ، فيبكي
 اياها ، وسكينة تبكي بدموع ذوارف على الحدين والجلباب ، انمراق عمر
 ابن أبي ربيعة ، وتصغى الى شدة المغنين بقولها على لسانه :

ليت المنصري الذي لم أجزه
 فيما أطال تصيدي وطلابي .. !
 كانت ترد لنا المنى أيامنا

اذ لا نلام على هوى وتصاي .. !
 فاعل عمر اذن ، قد قال فيها ما قال بعد عودتها من سفرها الى مصر
 مع عمته السيدة زينب عقيلة بنى هاشم ؟

الذين أرخوا للسيدة زينب ، ذكروا وفاتها في شهر رجب سنة ٦٢
 هـ (٢) ، وقد ثوت في مرقدها الأخير هناك ، وآبت سكينة من رحلتها
 مضاعفة اليتيم ، لتشهد بعد ذلك ثورة أهل المدينة على بنى أمية ، وخروجهم
 على « يزيد بن معاوية ، لقلعة دينه » وهى الثورة التى انتهت بموقعة الحره
 — بظاهر المدينة — حيث استشهد من أولاد المهاجرين والأندلس ٣٥٦
 شخصا ، وعدد من بقية الصحابة الأولين ، وهجر المسجد النبوى فلم
 تقم فيه صلاة الجماعة لمدى أيام (٣)

والمقول أن عمر تاب توبته المشهورة في ذلك العام ، وشغل العالم
 الاسلامى بعد ذلك بقيام حركة الترايين في العراق ، الذين آدهم الندم

(١) مقاتل الطالبين : ٨٥ وانظر تاريخ الطبرى ٢٦٩/٦
 (٢) المبدل النساب : السيدة زينب وأخبار الزينات — ص ٢٠
 (٣) تاريخ الطبرى : ٥/٧ — ومقاتل الطالبين : ١٢٣ وما بعدها
 وانظر شدوات الذهب : ٧٠/١

على عدم نصرة الامام الحسين الشهيد ، فلم يروا كفارة دون انقتل في
الثار له ولصحبه ، فهل يا ترى ، كانت سكينه تصم أذنيها عن هتاف
التوايين ، لترغم « ابن سريج » على الغناء في دارها مع عزة الميلاء ،
وتفتنه عن توبته عن الغناء ؟ ..

وقد رأيناها بعد ذلك تشغل بحياتها الزوجية مع مصعب بن الزبير ، ثم
ترجع الى المدينة مقهورة محزونة ، فلا تكاد تطوى جرحها في الأعماق حتى
تنزوج من عبيد الله بن عثمان الخزامي ، وتفرغ لتربية صغارها الأربعة
بعيدا عن أضواء المجتمع ، قلما ترملت ، بعد أن أرهقها التيار جذبا ودفعها ،
وأنهكها الموج شدا وارخاء ، بدأت تظهر في المجتمع ، وقد هبطت بها
موجة الأحداث والأرزاء الى قرارة اليأس ، فكانت تجربتها الأخيرة ، في
زواجها الفاشل من زيد بن عمر العثماني ، هي آخر الشوط في المقاومة ،
ومن ثم استقر رأيها نهائيا على ممارسة الحياة ممارسة التي ضجرت ،
وجربت ، وكابدت ، وشربت الكأس حتى الثمالة !
وظهرت في المجتمع ، وكانت وقتئذ ، في منتصف العقد الخامس من
عمرها !

وربما جاز عند الدكتور زكي مبارك ، أن يتصورها في هذه السن
العالية « تعيش في رعاية الحسن والجمال ، وتحرص على تخليد مفاتها على
السنة الشعراء »

وغير عجيب أن يجوز عنده كذلك ، أن يكون « عمر » قد شهد معها
ليلة الصورين ، وملاً الأفق الحجازي بقصائد غزله فيها ، بعد مضي ثلث
قرن على توبته !

أما الذي يجوز عندنا ، فهو أن « سكينه بنت الحسين » قد شغلت من
ذلك الوقت ، دورا آخر في المجتمع ، هو دور الأديبة الناقدة
وهذا ما نفرغ له في فصل جديد ...

الأدبية الناقدة

لم يح تاريخ الأدب للسيدة سكيمة غير أبيات معدودات ، كتلك التي
قبل انها رثت بها أباهما رضى الله عنه :
لـ تعذليه فهم قاطع طرفه
فعينه بدموع ذرف غدرته
ان الحسين غداة الطف يرشقه
ريب المنون فما أن يخطيء الملقه
بكف شر عباد الله كلهم
نسل البغايا ، وجيش المرق الفسقه
أئمة السوء هاتوا ، ما احتجاجكم
غدا ، وجثثكم بالسيف قد صفقه
الويل حل بكم الا عن حقه
صبرتموه لأرماح العدى درقه
يا عين فاحتفلى طول الحياة دما
لا تبك ولدا ولا أهلا ولا رفقه
لكن على ابن رسول الله فانسكبي
دما وقيحا ، وفي اثريهما العلقه (١)

وبيتين اثنين ، فى رثاء زوجها مصعب بن الزبير :
فان تقتلوه تقتلوا الماجد الذى
يرى الموت الا بالسيف حراما

وقبلك ما خاض « الحسين » منية
الى القوم حتى أوردوه جما !
وهى أبيات لا تكفى لعددها شاعرة !
لكنى أكاد لا أرتاب فى أن الرواة قد أسقطوا لها شعرا آخر فى غير
الرثاء !

وتلك شنشة نعرفها من أخزم !
انهم قصرُوا المجال الفنى للمرأة على الرثاء ، وقل أن اعترفوا بها شاعرة
غير رائية
فعلوا ذلك مع الخنساء !

وفعلوه مع ستين شاعرة أخرى من شواعر العرب ، ذيلوا بمراثيهم
ديوان الخنساء المطبوع فى بيروت

وفعلوه مع « الرباب » بنت امرئ القيس أم سكينه . قالوا : هى
شاعرة ، ثم لم يحفظوا لنا من شعرها غير بضعة أبيات فى رثاء زوجها ..
وبيتين آخرين رثته بهما أيضا حين سيقت مع ركب السبايا الهاشميات ،
الى قصر ابن زياد . وقد نقلناهما فى الحديث عن كربلاء
وما يمثل هذه الأبيات ، تعد « الرباب » شاعرة كما وصفوها !..

على ان التاريخ الأدبى ، وان أسقط شعر « سكينه » فى غير الرثاء ،
فقد اعترف لها من ناحية أخرى بمكانة لعله لم يعترف بمثلها لسيدة غيرها
فى مختلف عصوره ، حين ألقى اليها مقاليد الحكم بين أمراء الفن فى
الشعر والغناء

وأقرت لها بالسيطرة الأدبية على عصرها فى مجال النقد ، حين فرضت
عليه شخصيتها الفريدة ، وبهرته بذوقها الفنى الأصيل الذى هيا لها أن
تكون ذات بصر دقيق بفن القول ، وفقه لأسرار العربية فى الأداء



وكانت الاصاله هى الطابع المميز لها ذوقا وحسا ، بقدر ما كانت الطابع
المميز لها نسبا وجمالا وأناقته

وليس صحيحاً أن أمراء الشعر في زمانها إنما أقروا لها بالسيطرة الأدبية خضوعاً لجبروت جمالها ، وهيبة شرفها كما ذهب الدكتور زكى مبارك ، فما لجمال الأتشي جبروت في سن الكهولة والشيخوخة ، وهى بعد لم تنفرد بالحسن دون بنات جيلها ، بل شاركتها فيه أخريات يكفى أن نذكر منهن أختها « فاطمة بنت الحسين » التى قيل فيها ، يوم اختارها أبوها رضى الله عنه لابن عمها الحسن : « ان امرأة مردودتها سكىنة ، لمنقطعة القرين فى الحسن » . كما نذكر عائشة بنت طلحة ، التى خلعت ألباب الشعراء فى عصرها فكادوا ييجنون بها جنونا ، والتى ذكروا أن أبا هريرة قال فيها :

— سبحان الله ، لكأنها من حور الجنة ..

كذلك لم يكن شرفها العالى هو الذى ألقى اليها مقاليد الحكم الأدبي وأخضع لها الشعراء ، والا لشاركتها فى مكائنها هذه ، أختها فاطمة وبنات عمها الحسن ، حفيدات الزهراء مثلها وسليلات النبوة :

وانما كانت سيطرتها الأدبية ترجع فى الحقيقة الى علو كعبها فى فن القول ، وحساسيتها المرفهة فى ذوق الشعر ، وادراكها البصير لمواطن التأثير ودوافع القول وأسرار البلاغة والبيان

ولولا أنها كانت نادرة عصرها بصرا بالشعر وفقها للعربية ، لما اعترف بها التاريخ الأدبي بمثل تلك المكانة ، وهو الذى أسقط شعرها من ديوان الأدب ، وجحد شاعريتها وشاعرية الاناث مثلها ، الا أن تكون رائية ! وبين أيدينا خبر ، قد يوضح لنا السبب الذى من أجله ألقيت الى السيدة سكىنة مقاليد النقد الأدبي فى عصرها ، ونص الخبر :

« أنشيدت سكىنة بنت الحسين قول الحارث بن خالد ، فى وصف النساء ، فى الحج :

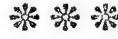
ففرغن من سبع وقد جهدت

أحشاؤهن موائل الخمر

فسألت سكىنة من المجلس : أحسن عندكم ما قال ؟.. قالوا : نعم .

فقلت : وما حسنه ؟ !.. فوالله لو طافت الابل سباعا لجهدت
أحشاؤها « (١)

واذن فقد غاب عنهم ما لم يغب عن سكينه ، وفاتهم ان ينتبهوا الى ما
انتبهت اليه بحسها المرهف !



والقدر الذي وعاه لها التاريخ الأدبي في النقد والتحكيم والموازنة ،
يكفي للدلالة على منزلتها الرفيعة في المجتمع الأدبي ، ويقدم لنا نماذج
من أحكامها وآرائها النقدية ، تفسر لنا ، لم آثرها عصرها بهذه المنزلة
التي لا نعرف أنهم اختلفوا فيها .

وهذا كتاب الأغاني ، وفيه ما فيه من أخبار ومرويات كذلك التي
سمعناها ، ينقل رواية عن محمد بن سلام ، تؤازرها رواية مثلها عن عمر
ابن شبة : « ان جريرا والفرزدق وكثيرا وجميلا ونصييا ، اجتمعوا في
ضيافة سكينه بنت الحسين رضى الله عنه ، فمكثوا أياما ثم أذنت لهم
فدخلوا عليها ، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها ، وتسمع كلامهم . ثم
أخرجت وصيفة لها قد روت الأشعار والأحاديث ، فقلت : أيكم الفرزدق ؟
فتال لها : هأنذا . قالت : أنت القائل :

هما دلتاني من ثمانين قامة

كما انحط باز أقتم الريش كاسره

فلما استوت رجلاى بالأرض قالتا :

أحى " يرجى أم قتيل فطاذره

فقلت : ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا

وأقبلت في اعجاز ليل أبادره

أبادر بوأبين قد وكلا بنا

وأحمر من ساج تبص مسامره !

قال : نعم ..

قالت : فما دعائك الى افشاء سرها وسرك ، هلا سترت عليك وعليها ؟
خذ هذه الألف والحق بأهلك ..

« ثم دخلت على مولاتها وخرجت برسالتها فقالت : أيكم جرير ؟
قال : هأنذا . قالت : أنت القائل :
طرقك صائدة القلوب وليس ذا

حين الزيارة فارجى بسلام
تجرى السواك على أغر كأنه
برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذي حدثنا
لو صرت ذاك وكان غير لمام
ابى أوصل من أردت وصاله
بجبال لا صلف ولا لوام

قال : نعم ..

قالت : أو لا أخذت بيدها وفلت لها ما يقال لمثلها ؟ .. أنت عفيف
وفيك ضعف . خذ هذه الألف والحق بأهلك ..

« ثم دخلت الى مولاتها وخرجت فقالت : أبكم كثير ؟ .. قال :
هأنذا . قالت : أنت القائل :

وأعجبني يا عز منك خلائق
كرام اذا عده الخلائق ، أربع
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا
ودفعك أسباب المنى حين يطمع
فوالله ما يدرى كريم مما طل
أينساك اذ باعدت أو يتصدع !

قال : نعم ..

قالت : « ملحت وشكلت ، خذ هذه الثلاثة الآلاف والحق بأهلك ..
« ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : أيكم نصيب ؟ .. قال :

هأنذا . فقالت : أنت القائل :
 ونولا أن يقال : صبا نصيب
 لقلت : بنفسى النشاء الصغار
 بنفسى كل مهضوم حشاها
 اذا ظلمت فليس لها انتصار
 قال : نعم ..

فقالت : ربيتنا صفارا ومدحتنا كبارا . خذ هذه الألف والحق بأهلك .
 « ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : يا جليل ، مولاتى تقرئك
 السلام . وتقول لك : والله ما زلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :
 ألا ليت شمرى هل أبيت ليلة
 بوادى القرى ، انى اذن لسميد
 لكل حديث ينهن بشاشة
 وكل قنيل عندهن شهيد
 جعلت حديثنا بشاشة ، وقتلانا شهداء . خذ هذه الألف دينار والحق
 بأهلك (١)

وليس يفوتنا ما للنص من دلالات ..
 منها ، ان أمراء الشعر فى عصرها كانوا يجتمعون فى دارها فتأذن لهم
 وتجلس حيث تراههم ولا يرونها ، وقد اتخذت وصيفة لها تنقل الى كل
 منهم مختارها من شعره ورأيها فيه . فعلت ذلك مرة بعد مرة . فكلما
 فرغت من شاعر دخلت على مولاتها وعادت برسالة منها لشاعر آخر ،
 وهى السيدة التى وصفها « زكى مبارك » بالتبذل فى مخالطة المنعنين
 وملابسة الشعراء ..

وقد أنكرت على « الفرزدق » افشاء سره وسر صاحبه ، والأخبار
 تزعم مع هذا انها طربت لغناء الغريض بشعر « عمر » فيها ، وقد أفشى
 به سر ليلة الصورين !

(١) الاغانى : ١٦٦/١٤ ومابعدها - ساسى

وأثنت على « جرير » لعفة شعره ، وان أنكرت ضعفه ، وأسلوبه في مخاطبة زائرتة

وأعجبتها أبيات « كثير » في وصف صاحبتة ، لما لمحت فيها من دقة التعبير عن عزة الأنثى ، وطبيعة حواء ..

وخبر آخر ننقله من (الأغاني) على علاته ، وهو صريح في احتكام الشعراء - أو رواتهم - اليها لما يعرفون من عقلها وبصرها بالشعر .
قائلوا : « اجتمع بالمدينة راوية جرير ، وراوية كثير ، وراوية جميل ، وراوية نصيب ، وراوية الأحوص ، فافتخر كل رجل منهم بصاحبه وقال : صاحبي أشعر

» فحكموا سكينه بنت الحسين بن علي عليهما السلام ، لما يعرفونه من عقلها وبصرها بالشعر ، فخرجوا يتهادون حتى استأذنوا عليها فأذنت بهم ، فذكروا لها الذي كان من أمرهم فقالت لراوية جرير : أليس صاحبك الذي يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا

وقت الزيارة فارجعي بسلام

أى ساعة أحلى من الطروق ؟.. قبَّح الله صاحبك وقبَّح شعره ..

» ثم قالت لراوية كثير : أليس صاحبك الذي يقول :

يقر بعيني ما يقر بعينها

وأحسن شيء ما به العين قرت

أفيحب صاحبك أن يكون أنثى ؟.. قبَّح الله صاحبك وقبَّح شعره ..

» ثم قالت لراوية جميل : أليس صاحبك الذي يقول :

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها

ولكن طلايها لما فات من عقلي

فما أرى بصاحبك من هوى ، إنما يطلب عقله !.. قبَّح الله صاحبك

وقبَّح شعره ..

ثم قالت لراوية نصيب : أليس صاحبك الذى يقول :
 أهيم بدعد ما حييت^١ فان أمت
 فوا حزنا من ذا يهيم بها بعدى
 فما أرى له همة الا فيمن يتعشقها بعده !.. قبَّح الله صاحبك وقبَّح
 شعره .. ألا قال :

أهيم بدعد ما حييت فان أمت
 فلا صلحت دعد^٢ لذى خلَّة بعدى !
 ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبك الذى يقول :
 من عاشقين تراسلا وتواعدا
 ليلاً اذا نجم الثريا حلَّقا
 باتا بأنعم ليلة وألذها
 حتى اذا وضح الصباح تفرقا
 قال : نعم ..

قالت : قبَّحه الله وقبَّح شعره !.. ألا قال تعانقا ؟ .. (١)
 ودلالة النص ان سكينه كان اليها الاحتكام اذا اشتجر الخلاف بين
 رواة الشعراء أى أصحابهم أشعر ، وانها كانت واعية للشعر حافظه ،
 تعرف مأخذ الشعراء وتقسو في محاسبتهم على عثراتهم . ولفتاتها النقدية
 دقيقة بارعة ، وهى جديرة بأن تعين على فهمنا لعصر سكينه الأدبى ، على
 ضوء الاعتبار الفنية التى كانت الناقد الأولى للعصر ، تصدر عنها
 أحكامها فى ذوق الشعر ، ووزن الشعراء

ولم يكن اعجابها بشاعر ، يحميه من قسوتها فى مؤاخذته ، فهذا
 « جرير » الذى أنكرت عليه ضعفه وسوء أدبه فى مخاطبة النساء حيث
 قال :

طرقتك صائدة القلوب ونيس ذا
 وقت الزيارة فارجمى بسلام

كانت ربما قدمته على الفرزدق ، وصارحت الفرزدق برأيها فبهما دون
مجاملة . حدثت الشعبي : « ان الفرزدق خرج حاجًا ، فلما قضى حجه
عدل الى المدينة فدخل الى سكينه بنت الحسين رضى الله عنهما فسلم ،
فقلت له : يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟

قال : أنا .

قلت : كذبت ، أشعر منك الذى يقول :

بِنَفْسِي مَنْ تَجَنَّبَهُ عَزِيزٌ

عَلَى وَمَنْ زيارته لِمَا

وَمَنْ أَمْسَى وَأَصْبَحَ لَا أَرَاهُ

وَيُطْرَقُنِي إِذَا هَجَعَ النِّسَامُ

فقال لها : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . ثم أمرته فانصرف .
فلما كان الغد استأذن عليها فسألته : يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟
قال : أنا .

قلت : كذبت ! صاحبك « جرير » أشعر منك حيث يقول :

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَهَا جُنَى اسْتِعْبَارُ

وَلَزَرْتُ قَبْرَكَ وَالْحَبِيبَ يَتَارُ

كَانَتْ إِذَا هَجَرَ الضَّجِيعُ فَرَاشَهَا

كَتَمَ الْحَسَدِثُ وَعَقَّتِ الْأَسْرَارُ

لَا يَلْبَثُ الْقُرْنَاءُ أَنْ يَنْفَرَقُوا

لَيْلٌ يَكْثُرُ عَلَيْهِمْ وَنَهَارٌ . . .

فقال : والله لئن أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . فأمرت به فانصرف ،
ثم عاد اليها فى اليوم الثالث ، فأعادت سؤاله : يا فرزدق من أشعر الناس ؟
قال : أنا .

قلت : كذبت ، صاحبك أشعر حيث يقول :

ان العيون التى فى طرفها مرض
قتلتنا .. ثم لم يحين قتلنا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله أركاناً . « (١)

فاذا كان هذا الموقف حدث قبل اجتماع الفرزدق مع جرير ، فى ضيافتها ، فذلك هو ما قلناها من ان اعجابها بالشاعر وتفضيلها اياه ، لم يكن يجعلها تغض البصر عن سقطاته . أما ان كانت مؤاخذتها جريراً قد سبقت زيارة الفرزدق لها ، وسماعه ما سمع من تفضيلها « جريراً » عليه ، فهذا ما يدل على ان السيدة الناقدة ، لم تكن تحكم على الشاعر بشعره جملة ، أو تتشبث برأى لها فيه لا تعدل عنه ، أخطأ « جرير » فقالت له : فيك ضعف ، ثم لم يمنعها ضعفه من الحكم له على الفرزدق

وقد روى أبو الفرج فى أغانيه خبراً له دلالة على شدة شغفها بالشعر وحرصها على السمو به الى فنية جمالية ، حدثت المدائنى : ان « سكينه كانت ذات ليلة تسير ، فسمعت حادياً يحدو فى الليل يقول :

*** لولا ثلاث هن عيش الدهر ***

فقالت لقائد قطارها : الحق بنا هذا الرجل حتى نسمع منه ما هذه الثلاث . فطالب طلبه لذلك حتى أتعبه . فقالت سكينه لغلام لها : « سر أنت حتى تسمع عنه » . فسار الغلام سريعاً ثم عاد الى مولاته ، فقال لها : سمعته يقول :

*** الماء ، والنوم ، وأم عمرو ***

فقالت : قبّحه الله ، أتعبنى منذ الليلة ! « (٢)
وانما أنكرت أن يخلط بين حاجات الجسم المادية ، وحاجة القلب

(١) الاغانى : ٣٨/٨ ط الدار
والايبات فى (ديوان جرير) ط الصاوى ، مع خلاف يسير
(٢) وفيات الاميان ٢١١/١
والاغانى : ١٠١/٢١ مامى

والوجدان . وأن تستوى عنده أم عمرو ، والماء ، والنوم ، بل تتأخر
عنهما .

وتشهد نادرة لها طريفة ، نقلها « ابن خلكان » على أنها كانت
مرهفة الحس الشعرى ، دقيقة الملح لسر القول ودلالته على صدق
العبارة . « يروى أنها وقفت على عروة بن أذينة (١) وكان من أعيان
العلماء وكبار الصالحين ، وله أشعار رائقة ، فقالت له : أنت القائل :
إذا وجدت أوار الحب في كبدي

ذهبت نحو سقاء الماء أبرد
هبتى بردت ببرد الماء ظاهره
فمن نار على الأحشاء تنقد
قال : نعم ..

قالت : وأنت القائل :
قالت ، وأبشتها سرى وبحث به
قد كنت عندى تحت الستر فاستتر
أنست تبصر من حولى ؟.. فقلت لها :
غطى هواك وما ألقى على بصرى

قال : نعم ..
فالتفت الى جوار لها كن حولها وقالت : هن حرائر ، ان كان هذا
الشعر خرج من قلب سليم قط ! (٢)
وانما أنكرت أن يزعم « عروة » ، وهو من كبار الصالحين ، انه قال
هذا الشعر على مذهب الشعراء !

(١) أبو عامر ، توفي حوالى سنة ١٣٠ هـ . وكان من جلة علماء المدينة ومن شعرائها
المقدمين . وروى عنه الامام مالك وغيره .
انظر بعض اخباره في (الأغانى : ١٠٥/١) ساسي
(٢) رواية (سمط اللالى : ١٣٦/١) :
للشعر الثانى من البيت الاول :
* أقبلت نحو سقاء الماء أبرد *

وجيء فيه بكلمة السيدة سكينة دون ذكر اسمها ، وخلق الاستاذ اليمنى بهامشه :
هذه هى السيدة سكينة ، وهى السائلة عن الشعر كما في (المصارع ٣١٣) و (المرتضى
٧٣/٢)

ضرورة التزام مقومات الشعر في رأيها ، من عمق المعاناة ، وعاطفية
التناول ، وصدق الوجدان ، والسمو بالشعر الى أفقه الجمالى ، بعيداً
عن « الماء ، والنوم ، وأم عمرو » !

ولسنا بحيث نؤاخذها على جزئية أحكامها ، واتجاهها بالنقد الى
اعتبار البيت أو الأبيات مناط حكم على الشاعر ، فلم يكن عصرها ينظر
في القصيدة من حيث هي وحدة متكاملة .

وليس يفوتنا هنا أن نلاحظ أن « سكينه » فيما نقل اليها من ملاحظتها
النقدية - لم تتعرض قط لشعر المدح ، فهل تراها أسفطته من حسابها
لما تعلم من كثرة الزيف فيه وغلبة النفاق عليه ؟ ..

ليس هذا عندنا بعيد ، وقد كان من بين الذين تعرضت لنقد شعرهم ،
جرير ، والفرزدق ، ونصيب ، وكثير ، ولهم في المدح قصائد مشهورات ،
ولم نرها مع ذلك روت لأحدهم بيتاً من مدائحه أو ناقشته فيه ، وإنما
كان اهتمامها كله بما قالوا في الحب ، وكأنها كانت ترى فيه ما لا ترى في
المدح ، من نبض القلب وحس الوجدان ، وتعدده المقياس الدقيق لامتحان
أصالة الشاعرية وصدق المعاناة ..

المشهد الأخير

امتد العمر بالسيدة سكينه حتى شارفت العقد الثامن من حياتها ..
وليس فيما لدينا من أخبار ومرويات ، ما يشير الى مرض ألم بها
قبيل الموت أو يتحدث عن حالها في أخريات أيامها ، وإنما اقتصر الخبر
على ما كان من أمرها فيما بين وفاتها الى أن دفن جسدها في ثرى «طيبة»
مدينة جدها الرسول

وهذا الذى كان ، هو المشهد الأخير من حياتها الحافلة ، وقد أشار
إليه أكثر الذين أرخوا لسيرتها ، منهم « ابن خلكان » فى « الوفيات »
و « ابن العماد » فى « الشذرات » . ولكن صاحب الأغاني هو الذى
أورده مفصلا ، قال رواية عن جماعة من شيوخ بنى هاشم :

« انه لم يَصلِّ على أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير
امام ، الا على سكينه بنت الحسين رضى الله عنه . فانها ماتت وعلى المدينة
خالد بن عبد الملك ، فأرسلوا اليه فأذنوه بالجنائزة وذلك فى أول النهار
فى حرٍّ شديد ، فأرسل اليهم : لا تحدثوا حدثا حتى أجيء فأصلى عليها .
فوضع النعش فى موضع المصلى على الجنائز ، وجلسوا ينتظرونه حتى
صار الظهر ، فأرسلوا اليه فقال : لا تحدثوا فيها شيئا حتى أجيء .
فجاءت العصر ثم لم يزالوا ينتظرونه حتى صليت العشاء ، كل ذاك وهم
يرسلون اليه فلا يأذن لهم ، حتى حلت العتمة ولم يجيء ، ومكث الناس
جلوسا حتى غلبهم النوم ، فقاموا فأقبلوا يصلون عليها جمعا جمعا
وينصرفون ، فأمر على بن الحسين رضى الله عنه من جاءه بطيب — قيل
وأنما أراد خالد بن عبد الملك فيما ظن قوم أن تنتن — فأتمى بالمجامر
فوضعت حول النعش ، ونهض محمد بن عبد الله العثماني ، فأعطى عطارا

كان يعرف عنده عودا فاشتراه منه بأربعمائة دينار . ثم أوقد حول السرير حتى أصبح وقد فترغ منه . فلما صليت الصبح ، أرسل خالد اليهم أن صلوا عليها وادفنوها « (١) »
وكأنما أراد القدر ألا تمضي الهاشمية الحسنة عن الدنيا ، دون مشهد ختامى مثير ، لقصتها الحافلة !



ولكن متى توفيت « سكيئة » على وجه التحديد ؟ ..
هنا نعود فنضرب في تيه من تناقض الأخبار وتعارض الرويات ..
فالمشهد الذى نقلناه ، فيه نص على أنها توفيت ، وخالد بن عبد الملك ابن الحارث وال على المدينة ، وان أخاها زين العابدين «على بن الحسين» قد شهد وفاتها ، وكان هو الذى أشرف على تجهيزها لمشاها الأخير ..
والامام زين العابدين قد توفى بالمدينة فى العشر الأخيرة من القرن الأول ، ومدى الخلاف فى سنة وفاته ، لا يتجاوز ما بين عامى ٩٣ هـ ، و ٩٤ هـ . وابن خلكان قد اختار سنة ٩٤ ، وكذلك ابن العماد الحنبلى (٢) وان يكن الأول قد أضاف :
« وقيل توفى سنة ٩٢ هـ » (٣)

والذى فى (نسب قريش) انه توفى سنة ٩٤ هـ (٤)
وانفرد الشيخ الشعرانى — فيما قرأت — بالقول بوفاة الامام زين العابدين سنة ٩٩ هـ (٥) ، وهو ما نرفضه ، لسبب نذكره ان شاء الله عن قريب ..

فلو صح ان الامام شهد وفاة أخته سكيئة — على رواية الأغاني —
لكان مقتضى هذا ، انها توفيت قبل سنة ٩٤ هـ ، اذا أخذنا بأقصى الأجلين ..

(١) الأغاني : ١٧٠/١٤ ساسى
(٢) شذرات الذهب : ١٠٥/١
(٣) وفيات الاعيان : ٤٩٥/١
(٤) نسب قريش : ٥٨
(٥) طبقات الاولياء : ٢٧/١

لكن خالد بن عبد الملك ، قد كان واليا على المدينة سنة ١١٧ هـ ..
وقد عزله عنها هشام سنة ١١٨ هـ ، كما في (تاريخ الطبرى) ..
وفيه كذلك ، ان سكيئة توفيت سنة ١١٧ هـ ، قال في حوادث سنة
١١٧ هـ : « وحج بالناس في هذه السنة ، خالد بن عبد الملك ، وكان
العامل فيها على المدينة ... وفيها توفيت سكيئة ابنة الحسين بن على » (١)
وابن خلكان ، ذكر وفاة السيدة سكيئة في هذا التاريخ — ١١٧ هـ —
دون أن يشير الى أى خلاف فيه ..

ومثله في (شذرات الذهب) و (مقتل الحسين : ٣٦٨)
وهو التاريخ الذى اعتمدته دائرة المعارف فقالت في مادة سكيئة :
« ... توفيت بالمدينة في يوم الثلاثاء من شهر ربيع الاول عام ١١٧ هـ »
فكيف شهد زين العابدين وفاتها ، ولا خلاف في أنه لم يدرك القرن
الثانى ؟

والفرق بين تاريخ وفاته ، وتاريخ وفاة السيدة سكيئة ، يبلغ ثلاثة
وعشرين عاما اذا أخذنا بالقول الراجح في وفاته ، وقد يصل الى ربع
قرن ، على قول من قال بوفاة سنة ٩٢ هـ !
وهو مدى طويل ، كان يجب أن يثير الاهتمام ، لكننا لا نعجب لمروره
مكذبا في ساطة ، وبغير محاولة للنظر فيه
وذلك اننا نعرف من اضطراب التواريخ في تراجم أعلامنا ، ما لا موضع
معه للعجب هنا

ولن آتى بمثل بعيدة ، لما وصل اليه الخلاف في مواقف مشهودة ، ومع
أشخاص ذوى خطر في التاريخ الاسلامى ، وانما أكتفى هنا بإيراد مثل
واحد ، هو أقرب الأمثلة لما نحن فيه : فالشيخ الشعرانى يقول بوفاة زين
العابدين سنة ٩٩ هـ ، عن ٥٨ عاما (٢) أى أنه ولد سنة ٤١ هـ
وفي الصفحة نفسها ، بل في الفقرة التالية ، يقول بوفاة « الامام محمد

(١) تاريخ الطبرى : ٢٢٨/٨

(٢) طبقات الاولياء : ٢٧/١

الباقر بن زين العابدين ، عام ١١٧ هـ عن ٧٣ عاما «
 أى أنه ولد سنة ٤٤ هـ

ولم يكلف الشيخ الشعراني خاطره ، بأن يفسر لنا كيف أنجب الامام
 زين العابدين ، وهو في الثالثة من عمره ، ابنه محمد الباقر !
 ولو قال انها احدى كرامات الامام زين العابدين ، لتركناها له ،
 واسترحنا !

لكن ، حتى هذه لم يقلها !
 وممر بالأمر وكان ليس فيه ما يلتفت أو يدعو الى اهتمام ..

ونعود الى موضوعنا ، فلا نرى حتما علينا أن نقف طويلا لنحقق مسألة
 شهود زين العابدين موت أخته سكينه ، فمن الواضح عندنا أن ورود
 اسمه رضى الله عنه ، في حادثة مشهدها ، خطأ ، لا ندرى أهو من الراوى
 الأول للخبر ، أم من الناقل ، أم من الناسخ !
 وأطمئن بعد هذا ، الى ما اتفق عليه الطبرى ، وابن خلكان ، وكتب
 الشيعة ، من وفاة السيدة سكينه سنة ١١٧ هـ ، بمدينة جددها الرسول ،
 وخالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم ، عامل على المدينة ، لهشام بن
 عبد الملك بن مروان ..

واستقر بها المطاف آخر الأمر في ثرى « طيبة » مدينة جددها الرسول
 عليه الصلاة والسلام ، تاركة من بعدها كلمة الحق في كل ما يقال فيها أو
 يروى عنها ، أمانة صعبة في حافظة الزمن الواعية ، وضمير التاريخ المصنف
 الأمين

مصادر ومراجع

- ١ - المصعب بن عبد الله الزبيري : نسب قريش - ط الذخائر
- ٢ - علي بن سعيد بن حزم : جمهرة أنساب العرب - الذخائر
- ٣ - الطبري : تاريخ الامم والملوك - ط مصر
- ٤ - ابن الاثير : تاريخ الكامل
- ٥ - أبو الفرج الاصبهاني : مقاتل الطالبين - ط الحلبي ١٩٤٩
- ٦ - أبو الفرج الاصبهاني : الاغانى - ط دار الكتب والساسى
- ٧ - مقاتل الطالبين ط الحلبي ١٩٤٩
- ٨ - أبو علي القالى : الامالى - سمط اللالى : ط لجنة التأليف
- ٩ - ابن خلكان : وفيات الاعيان - ط بولاق
- ١٠ - ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الاصحاب - ط نهضة مصر
- ١١ - ابن قتيبة : عيون الاخبار - ط - دار الكتب
- ١٢ - ابن كثير : البداية والنهاية هامش تاريخ الكامل
- ١٣ - ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب - ط القدسي
- ١٤ - الشيخ راضى آل ياسين : صالح الحسن - ط الزهراء ببغداد ١٩٥٣
- ١٥ - السيد عبد الرزاق الموسوى : مقتل الحسين - ط النجف ١٣٧٦
- ١٦ - السيد توفيق الفيكى : السيدة سكينة - ط العراق
- ١٧ - العميدلى النسابة : السيدة زينب واخبار الزينبات
- ١٨ - عبد الوهاب الشعرانى : طبقات الاولياء
- ١٩ - المبرد : الكامل بغية الامل من كتاب الكامل
- ٢٠ - ديوان عمر بن أبى ربيعة
- الدكتور طه حسين . حديث الاربعاء - ط أولى
- الاستاذ عبد الله العلايلى : أشعة من حياة الحسين
- الدكتور زكى مبارك : حب ابن أبى ربيعة وشعره - ط أولى
- دائرة المعارف الاسلامية : مادة سكينة

فهرس

صفحة

مقدمة	٥
الفصل الاول : فى بيت النبوة	
وافد غريب	١١
اللقاء الاول	١٣
فى بدء الطريق	١٥
طفولة مرحلة	٢٥
فى دوامة الأحداث	٣٢
مذبحة كربلاء	٤٣
بعد العاصفة	٥٥
الفصل الثانى : فى بيت الزوجية	
مثل من مروياتهم	٥٩
مع عبد الله بن الحسن	٦٥
مع مصعب بن الزبير	٦٨
مع ابراهيم بن عبد الرحمن	٩١
مع الاصبغ المروانى	٩٩
مع عبد الله بن عثمان الحزامى	١٥٢

صفحة

مع زيد بن عمر العثماني	١٠٦
الفصل الثالث : في المجتمع	
شخصيتها الاجتماعية	١٢١
المجتمع في عصرها	١٢٧
صورتها في هذا العصر	١٣٠
عود على بدء	١٤٧
كلمة يجب ان تقال	١٦٦
الادبية الناقدة	١٧٢
المشهد الاخير	١٨٥
مصادر ومراجع	١٨٩

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال

To: www.al-mostafa.com